

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

لفضيله
الدكتور محمد السيد طنطاوي
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٢ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

(تابع الجزء الثانى عشر)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .
وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة يوسف - عليه السلام - ، توخيت فيه
أن أبرز ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب
عالية ، وهدايات شاملة ، وحكم جليلة ، وتراكيب بليغة ...

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وناफعا لعباده ، وشفيعا
لنا يوم نلقاه ، إنه - سبحانه - أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة : ١٩ من شوال سنة ١٤٠١ هـ

٢١ من يونيو سنة ١٩٨١ م

المؤلف

سيد محمد طنطاوى

تعريف بسورة يوسف — عليه السلام —

١ — سورة يوسف — عليه السلام — هي السورة الثامنة عشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقها في الترتيب سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ...

أما ترتيبها في النزول ، فسكانت السورة الثالثة والخمسين ، وكان نزولها بعد سورة هود — عليه السلام — .

وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

وجه تسميتها بهذا الاسم ظاهر ؛ لأنها مشتملة على قصته — عليه السلام — مع إخوته ، ومع امرأة العزيز ، ومع ملك مصر في ذلك الوقت

ولم يذكر اسم يوسف — عليه السلام — في غير هذه السورة سوى مرقين : إحداهما : في سورة الأنعام في قوله — تعالى — : « وهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون الآية ٨٤ .

والثانية في سورة غافر في قوله — تعالى — : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات الآية ٣٤ .

والقول الصحيح أن سورة يوسف مكية جميعها مكية ، ولا التفات إلى قول من قال بأن فيها آيات مدنية ، لأن هذا القول لا دليل عليه .

قال الآلوسی : سورة يوسف مكية كلها على المعتمد ، وروى عن ابن عباس وقتادة أنها قالوا : هي مكية إلا ثلاث آيات من أولها . واستثنى بعضهم رابعة وهي قوله — تعالى — « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » .

وكل ذلك واه جدا لا يلتفت إليه ، وما اعتمدناه كغيرنا - من أنها كلها مكية - هو الثابت عن الخبر - أى عن ابن عباس ، (١) .

٣ - وقد ورد في سبب نزولها روايات متعددة ، منها ما روى عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال : أنزل القرآن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فتلاه على أصحابه زمانا ، فقالوا يا رسول الله ، لو قصصت علينا فنزلت سورة يوسف (٢)

٤ - طبيعة الفترة التي نزلت فيها هذه السورة : قلنا إن سورة يوسف كان نزولها بعد سورة هود ، وسبق أن بينا عند تفسيرنا لسورة هود ، أن هذه السورة الكريمة كان نزولها - على الأرجح - في الفترة التي أعقبت حادث الإسراء والمعراج ...

ويبدو أن سورة يوسف - أيضا - كان نزولها في هذه الفترة ، التي تعتبر من أشق الفترات في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، إذ تعرض خلالها للكثير من أذى المشركين ، بعد أن فقد - صلى الله عليه وسلم - في هذه الفترة عمه أبا طالب ، وزوجه السيدة خديجة - رضى الله عنها - .

ونزل سورة يوسف في هذه الفترة ، كان من أعظم المسليات التي واصلها الله - تعالى - بها نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فقد أخبره عما دار بين يوسف وإخوته ، وعما تعرض له هذا النبي الكريم من مصائب وأذى

ولاشك أن في قصة يوسف وما يشبهها ، تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه .

والذي يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وقامل ، يراها قد اشتملت على أوضح الدلائل ، وأنصح البراهين ، التي تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ...

(١) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٧٠ طبعة هنير الدمشقي .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٧٠ .

فقد قصت علينا قصة يوسف - عليه السلام - مع إخوته ومع غيرهم بأسلوب مثوق حكيم ، يهدي النفوس ، ويشرح الصدور ، ويكشف عن الخفايا التي لا يعلمها أحد إلا الله - تعالى - ، ويصور أحوال النفس الإنسانية تصويراً بديعاً معجزاً ...

كما يراها قد ساقَت ماساقت من حكم وأحكام ، وعبر وعظات ، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم ، وجمال العرض ، حتى إننا لنستطيع أن نقسم أهم الموضوعات التي تحدثت عنها إلى عشرة أقسام .

(أ) أما القسم الأول (١) منها ، فنراها تتحدث فيه عن جانب من فضائل القرآن الكريم ، وعن رؤيا يوسف - عليه السلام - وعن نصيحة أبيه له بعد أن قصا عليه ...

قال - تعالى - دأر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحيانا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين (٢) ،

(ب) وفي القسم الثاني منها نراها تحدثنا عن مكر إخوة يوسف به ، وحسد لهم له ، وتآمرهم على الانتقام منه ، وإجماعهم على أن يلقوا به في البئر ، وتنفيذهم لذلك بعد خداعهم لأبيهم ، وزعمهم له بأنهم سيحافظون على أخيه يوسف ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكي كل ذلك بأسلوبه البديع المعجز فيقول :
لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب

(١) الآيات من ١ - ٦ (٢) الآيات من ٧ - ١٨ .

(٣) الآيات من ١٩ - ٢٩

إلى أيدينا منا ونحن عصبه، إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين

إلى أن يقول - سبحانه - : « وجاءوا على قيصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون . »

(ج) ثم نراها في القسم الثالث منها تحدثنا عن افتشال السيارة ليوسف من الجب ، وعن بيعهم له بثمن بخس دراهم معدودة ، وعن وصية من اشتراه لامرأته بإكرام مشواه ، وعن محنته مع تلك المرأة التي راودته عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، وعن خروجه من هذه المحنة بريئا ، نقي المرض ، طاهر الذيل ... بعد أن شهد ببرائه شاهد من أهلها ..

قال - تعالى - « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يا بشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليهم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مشواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا »

إلى أن يقول - سبحانه : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ... »

ثم يختم - سبحانه - هذا القسم من السورة بحكاية ما قاله الزوج لامرأته وليوسف ، بعد أن تبين له صدق يوسف وكذب امرأته فيقول : « فلما رأى قيصه قد من دبر قال إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفر لي ذنبك إنك كنت من الخاطئين . »

ثم تحدثنا السورة بعد ذلك في القسم الرابع منها ، عن شيوع خبر امرأة

(١) الآيات من ٣٠ - ٣٥ .

العزیز مع فتاها ، وعمما فعلته تلك المرأة مع من أشاع هذا الخبر ، وعن لج
یوسف - علیه السلام - إلى ربه يستجير به من كيد هؤلاء النسوة . .

قال - تعالى - حاكيا هذا المشهد بأسلوب معجز : « وقال، نسوة في المد
امرأة العزیز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنراها في ضل
مبین . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكئا وقالت آخر
عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ما هذا بشرا إ
هذا إلا ملك كريم .

قالت فذلكن الذي لمتني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ول
لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال رب السجن أحب إل
مما يدعوفني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلین
فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من به
مارأوا الآيات ليسجنننه حتى حين ، .

ثم تحدثنا السورة الكريمة بعد ذلك في القسم (١) الخامس منها ، عن يوسف
السجين المظلوم ، وكيف أنه لم يمنعه السجن من دعوة رفاقه فيه إلى وحدان
الله ، وإلى إخلاص العبادة له - سبحانه - . . .

« يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار
ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أقم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان
إن الحكم إلا لله أمر أن لاتعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أك
الناس لا يعلمون

(و) ثم تحدثنا السورة الكريمة في القسم (٢) السادس منها عن الرؤيا المفز
التي رآها ملك مصر في ذلك الوقت ، وكيف أن حاشيته عجزت عن تفسيرها
ولكن يوسف الصديق فسرّها تفسيراً صحيحاً أعجب الملك ، وحمله على دعوة

للالتقاء به ، إلا أن يوسف - عليه السلام - أبى الالتقاء به إلا بعد أن يحقق الملك في قضيته بنفسه ، ويعلن برأته على رؤوس الأشهاد . . .

وبعد أن استجاب الملك لطلب يوسف ، وثبتت برأته - عليه السلام - حضر معززا مكرما وقال الملك بعزة وإباء : « اجعلنى على خزائن الأرض لنى حفيظ عليم »

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكى هذا المشهد بأسلوبها الزاخر بالمحاورات والمفاجآت ، فنقول : « وقال الملك لنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، وأنها المأأفونى فى رؤىاى إن كسنتم للرؤىا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بهالمين . وقال الذى نجا منهما وأدكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفئتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون »

ويتهى هذا المشهد ببيان سنة من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف ، والتى تتمثل فى حسن عاقبة المؤمنين حيث يقول - سبحانه - : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يقبوا منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ، . »

ثم تنتقل السورة الكريمة فى القسم السابع^(١) منها إلى الحديث عن اللقاء الأول الذى تم بين يوسف وإخوته ، بعد أن حضروا من بلادهم بفلسطين إلى مصر يلتمسون الزاد والطعام . . . وكيف أنه عرفهم دون أن يعرفوه ، وكيف أنه - عليه السلام - علم منهم بعد أن أكرمهم أن يحضروا إليه من بلادهم ومعهم أخوهم من أبيهم - وهو شقيقه بنيامين - . . .

وكيف أن أباهم وافق على إرسال بنيامين معهم بعد أن أخذ عليهم العهد والمواثيق لكي يحافظوا عليه ...

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي كل ذلك فتقول : وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال انتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفى الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فانه خير حافظا وهو أرحم الراحمين

ثم حدثت السورة الكريمة في القسم الثامن^(١) منها عن اللقاء الثاني الذي تم بين يوسف وإخوته ، بعد أن حضروا إليه في هذه المرة ومعهم بنيامين ، شقيق يوسف ، وكيف قام يوسف بالتعرف عليه ، ثم كيف احتجزه عنده بحيلة دبرها بإلهام من الله - تعالى - ، وكيف رد على أخوته الذين طلبوا منه أن يأخذ أحدهم مكان بنيامين ...

وماذا قاله يعقوب - عليه السلام - بعد أن عاد إليه أبنائه ، وليس معهم بنيامين

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي كل هذه المشاهد والأحداث فتقول :

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا

نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا يا الله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأربعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ...

ويتهى هذا القسم بقول يعقوب - عليه السلام - لأبنائه بعد أن عادوا إليه وليس معهم أخوهم بنيامين : قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال يا أسنى على يوسف وأبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا يا الله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

(ط) ثم حدثنا السورة السكرية بعد ذلك في القسم التاسع^(١) منها عن اللقاء الثالث والآخر بين يوسف وإخوته ، فحكيت لنا أن يوسف - عليه السلام - كشف لإخوته عن نفسه في هذا اللقاء ، وأمرهم بأن يذهبوا بقميصه ليلقوا به على وجه أبيه كما أمرهم أن يعودوا إليه ومعهم جميع أهلهم . كما حكيت لنا لقاء يوسف بأبويه ، وإكرامه لهما ، وشكره لله - تعالى - على ما وهبه من نعم . . .

قال - تعالى - ها کیا مادر بين يوسف وإخوته ، وبين يوسف وأبيه في هذا اللقاء : فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا السكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين .

قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنا نعلم ما فعلت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يثق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ...

إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأتوني بأهلكم أجمعين ...

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ثم ختم - سبحانه - قصة يوسف بهذا الدعاء الذى حكاه - سبحانه - عنه فى قوله : رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ، .

(ي) أما القسم العاشر^(١) والآخر من السورة الكريمة ، فقد كان تعقيبا على ما جاء فى تلك القصة من حكم وأحكام ، ومن عبر وعظات ، ومن آداب وهدايات ...

وقد بين - سبحانه - فى هذا القسم ما يدل على أن القرآن من عند الله ، وما يشهد بصدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ...

كما بين - سبحانه - وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وموقف المشركين من دعوته ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - ليس بدعا من الرسل ، وأن العاقبة ستكون له ولأتباعه المؤمنين .

قال - تعالى - وذلك من أنباء الغيب نوحيه إليه ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما نسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأين من آية فى السموات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ...

(١) الآيات من ١٠٢ - ١١١ .

ثم يختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله : : لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . .

٦ - هذا عرض بجمل لأهم الموضوعات التي اشتملت عليها سورة يوسف - عليه السلام - ، ومن هذا العرض نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأموار من أهمها ما يأتي :

(١) إبراز الحقائق والهدايات ، بأسلوب المحاورات والمجادلات والمناقشات ومن مظاهر ذلك :

المحاورات التي دارت حول إخوة يوسف في شأن الانتقام منه ، والتي منها قوله - تعالى - : : لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو أطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين

والمحاورات التي دارت بينهم وبين أبيهم في شأن اصطحابهم ليوسف ، والتي منها قوله - تعالى - : : قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون

والمحاورات التي دارت بين يوسف وإخوته ، بعد أن عرفهم وهم له منسكرون ، وبعد أن ترددوا عليه ثلاث مرات للحصول على حاجتهم من الزاد والتي منها قوله - تعالى - : : فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا السكيل وتصدق علينا إن الله

يجزى المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنتك لانت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تانا الله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لحاظئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

وهكذا نجد السورة الكريمة زاخرة بأسلوب المحاورات والمناقشات والمجادلات . تارة بين يوسف وأخوته ، وتارة بين إخوته فيما بينهم ، وتارة بينهم وبين أبيهم ، وتارة بين يوسف وامرأة العزيز ، وتارة بينه وبين ملك مصر فى ذلك الوقت

وهذه المحاورات التى حفلت بها السورة الكريمة ، قد أكسبتها لونا من العرض المشوق ، الذى يجعل القارى لها يتعجل حفظ كل موضوع من موضوعاتها ، ليصل إلى الموضوع الذى يليه

وهذا الأسلوب فى عرض الحقائق من اسمى الأساليب التى تعين القارى على حفظ القرآن الكريم ، وعلى تدبر معانيه ، وعلى الانتفاع بهداياته

٢ - إبرازها لجوهر الأحداث وإلبائها .. أما تفاصيل هذه الأحداث ... فترك معرفة لفهم القارى وفطنته ، وسلامة تفكيره ، وحسن تدبره لكلام الله - تعالى -

وهذا اللون من العرض للأحداث ، يسمى فى عرف البلغاء ، بأسلوب الإيجاز بالحذف والقارى لهذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها على رأس السور القرآنية التى كثر فيها هذا الأسلوب البليغ .

فتلا قوله - تعالى - : : وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سوات لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل معطوف على كلام محذوف يفهم من السياق .

والتقدير : وبعد أن ألقى إخوة يوسف به في الحب ، وانصرفوا لشتوتهم ، جاءوا على قيصره بدم كذب ، لكي يخدعوا أباهم ، فلما أخبروه بأن الذئب قد أكله ، قال ، بل سؤلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل

و كذلك قوله - تعالى - : قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه . . . مترتب على كلام مخدوف يفهم من سياق الآيات . . .

والتقدير : وبعد أن سمع ماقالته النسوة بشأنه عندما دخل عليهن بأمر من امرأة العزيز ، وسمع تهديد هذه المرأة له بقولها : : قالت فذلكم الذي لمثني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ، .

بعد أن سمع يوسف كل ذلك ، وتيقن من مكرهن به : لجأ إلى ربه مستجير إليه من كيدهن فقال : : رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه

وأيضا قوله - تعالى - : وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون . يوسف أيها الصديق أفنتا في سبع بقرات سمان

يعتبر من بديع أسلوب الإيجاز بالحذف ، إذ تقدير الكلام :

وبعد أن عجز الملاء عن تفسير رؤيا الملك ، وقالوا له : إن رؤياك أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، : قال الذي نجا منهما ، أي : من صاحبي يوسف في السجن وهو الساقى ، وأدكر بعد أمة ، أي وتذكر بعد نسيان طويل : أنا أنبئكم بتأويله فارسلون ، إلى من عنده تفسير هذه الرؤيا تفسيراً صحيحاً - وهو يوسف - ، فاستجابوا له وأرسلوه إلى يوسف ، فذهب إليه في السجن ، فلما دخل عليه قال له يا يوسف يا أيها الصديق ، أفنتا في سبع بقرات سمان الخ .

وهذا الأسلوب الذي زخرت به السورة الكريمة ، وهو أسلوب الإيجاز

بالحذف، من شأنه أنه ينشط العقول ، ويبعثها على التأمل والتدبر فيما تقرأه ،
ويعينها على الاتعاظ والاعتبار ...

وهو أسلوب أيضا تقتضيه هذه السورة الكريمة ، لأنها تتحدث عن قصة
نبي من أنبياء الله - تعالى - ، والحديث عن ذلك يستلزم إبراز جوهر
الأحداث ولبائها ، لا إبراز تفاصيلها ومالا فائدة من ذكره .

فاشتمال السورة الكريمة على هذا الأسلوب البليغ ، هو من باب رعاية
الكلام لمقتضى الحال ، وهو أصل البلاغة وركنها الركين .

٣ - السورة الكريمة اهتمت اهتماما واضحا بشرح أحوال النفس البشرية
وتحليل ما يصدر عنها في حال رضاها وغضبها ، وفي حال حبها وبغضها ، وفي
حال فرحها وحزنها ، وفي حال أملها ويأسها ، وفي حال صلاحها وانحرافها ،
وفي حال غناها وفقرها ، وفي حال عسرها ويسرها ، وفي حال صفائها
وحقدتها ...

وقد حدثتنا عن الشخصيات التي وردت فيها حديثا صادقا أميناً ، كشفت
لنا فيه عن جوانب متعددة من أخلاقهم ، وسلوكهم ، وميولهم ، وأفكارهم ...
وأعطت كل واحد منهم حقه في الحديث عنه .

(١) يوسف - عليه السلام - وهو الشخصية الرئيسة في القصة -
حدثتنا عنه حديثا مستفيضاً نستطيع من خلاله ، أن نرى له - عليه السلام -
مناقب ومزايا متنوعة من أهمها ما يأتي :

١ - إمتلاكه لنفسه ولشهوته مهما كانت المغريات ، بسبب خوفه لمقام ربه ،
ونهيه لنفسه عن الهوى ...

ولا أدل على ذلك من قوله - تعالى - : « وراودته التي هو في بينها عن نفسه
وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ،
إنه لا يفلح الظالمون ... »

(٢ - سريرة يوسف)

قال الشيخ القاسمي : قال الإمام ابن القيم مالم يخلصه : لقد كانت هناك دواعي متعددة تدعو يوسف إلى الاستجابة لطلب امرأة العزيز منها : باركبه الله في طبع الرجل من ميله إلى المرأة ...

ومنها : أنه كان شابا غير متزوج .. ومنها : أنها كانت ذات منصب وجمال ... وأنها كانت غير آيية ولا ممتنعة .. بل هي التي طلبت وأرادت وبذلت الجهد

ومنها : أنه كان في دارها وتحت سلطانها ... فلا يخشى أن تنم عليه ... ومنها : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن ، وشكت حالها إليهن ...

ومنها : أنها قرعته بالسجن والصغار إن لم يفعل ما تأمره به ... ومنها : أن الزوج لم يظفر من الغيرة والقوة ما يجعله يفرق بينه وبينها ... ومع كل هذه الدواعي ، فقد أثر يوسف مرضاة الله ومراقبته ، وحملة خوفه من خالفه على أن يختار السجن على ارتكاب ما يفضيه ... (١)

٢ - صبره الجميل على الحزن والبلايا ، ولجوؤه إلى ربه ليستجير به من كيد امرأة العزيز وصواحبها : قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلدين

٣ - نشره للدين الحق ، ودعوته لعبادة الله وحده ، حتى وهو بين جدران السجن ، فهو القائل لمن معه في السجن : يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أقم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان

٤ - حسن تدبيره للأمور ، وتوصله إلى ما يريد به بأحكام الأساليب ،

وخرضه الشديد على إنقاذ الأمة مما يضرها ويعرضها للهلاك ، قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم ثم فدروه في سبيله إلا قليلاً مما تأكلون

٥ - عزة نفسه ، وسمي خلقه ، فقد أبى أن يذهب لمقابلة الملك إلا بعد إعلان برأته ، وقال الملك اتوني به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله بما بال النسوة الاتي قطعن أيديهن إن ربي يكيدهن عليم

٦ - تحذره بنعمة الله ، ومعرفة نفسه قدرها ، وطالبه المنصب الذي يناسبه ، ويشق بقدرته على القيام بحقوقه ، قال اجعلني على خزان الأرض لاني حفيظ عليم . .

٧ - ذكاؤه وفطنته ، فقد تعرف على إخوته منع طول فراقه لهم : وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون

٨ - عفوه وصفحه عن أساء إليه ، قال لا تثرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

٩ - وفاؤه لأسرته ولعشيرته ، إذ ذهبوا يقيمصى هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين . .

١٠ - شكر الله - تعالى على نعمه ومننه ، رب ق- آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاعز السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفّي مسلماً وألحقني بالصالحين ، هذا جانب من حديث السورة الكريمة عن يوسف - عليه السلام - ، وهو حديث يدل على أنه كان في الذروة العليا من مكارم الاخلاق ، ومحاسن الشيم . . .

(ب) وتحدثت السورة الكريمة عن يعقوب - عليه السلام - قد ذكرت من بين ما ذكرت عنه ، صفات الصبر الجميل . والامل في رحمة الله مهما اشتدت الخطوب ، والحرص على سلامة آبائنا من كل ما يؤذيهم حتى ولو أسأوا إليه ،

والنظر إلى الأمور بهين تختلف عن عيون أبنائه ، والحكم عليها بحكم يختلف
عن أحكامهم ...

يدل على ذلك قوله - تعالى - وجاءوا على قيصه بدم كذب قال بل سولت
لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ، .

وقوله - تعالى - قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله
أن يأتيني بهم جميعا

وقوله - تعالى - وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب
متفرقة ...

وقوله - تعالى - ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا
أن تفندون . قالوا تا الله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه
على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، .

وتحدثت عن إخوة يوسف حديثا مستفيضا ، تبدو فيه غيرتهم من يوسف ،
وحسدهم له ، وتأمرهم على حياته ، وحقدهم عليه حتى وهو بعيد عنهم ... ثم ندبهم
في النهاية على ما فرط منهم في حقه بعد أن مكن الله له في الأرض ...

نرى ذلك في مثل قوله - تعالى - اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا
بغل لكم وجه أبيكم ... ،

وفي قوله ، قالوا تا الله تفتا قد كر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون
من الهالكين ، .

وفي قوله - سبحانه - قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ... ،

وفي قوله - تعالى - قالوا تا الله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ،

وتحدثت عن امرأة العزيز حديثا يكشف عن حال المرأة عندما تحب ..
وكيف أنها في سبيل الحصول على رغباتها تحطم كل الموانع النفسية والاجتماعية ..
وتستخدم كل الوسائل التي تظن أنها ستوصلها إلى مرادها . حتى ولو كانت هذه

الوسائل تخالف ما عرف عن المرأة من أنها حريصة على أن تكون مطلوبة من الرجل لاطالة له ...

(هـ) وتحدثت عن العزيز حديثا قصيرا يناسب حجمه وسلوكه وقبله شعوره ، فهو مع إيقانه بخطأ امرأته لم يزد عن أن قال ليوسف ولها يوسف أعرض عن عذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . .

(و) وتحدثت عن ملك مصر في ذلك الوقت وعن البيئة التي وصل الحال بها أن تزج بيوسف الهريء في السجن ، لإرضاء لشهوات النفوس الجامحة ...

قال - تعالى - ثم بدلهم من بعد ما رآوا الآيات أيسجننه حتى حين ، . وهكذا نجد السورة الكريمة تحدثنا عن نماذج من البشر ، فتصف كل نموذج بما يناسبه من صفات ، بصدق وأمانة ، وتحكم عليه بالحكم الذي يناسبه .

٤ - قال صاحب الظلال مامليخصه : والسورة كلها قصة واحدة عليها الطابع المسكي واضح في موضوعها وفي جواهرها وفي ظلالها وإيحائها ، بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة ...

ففى الوقت الذى كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعاني من الوحشة والغربة والانعطاع فى جاهلية قريش - منذ عام الحزن - كان الله - تعالى - يقص عليه قصة أخ له كريم هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وهو يعاني صنوفا من المحن والابتلاءات ...

محنة كيد الإخوة ، ومحنة الحب ، ومحنة الرق ، ومحنة كيد امرأة العزيز ، ومحنة السجن ، ثم محنة الرخاء والجاه والسلطان ...

فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم ، ومن التعقبات عليها بعد ذلك ... أسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه عما أصابهم من أعدائهم ، وتسرية لقلوبهم ، وتطميناً لنفوسهم .

ولكان الله - تعالى - يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم - : كما أخرج يوسف
من حضن أبيه أيواجه هذه الابتلاءات كلها ، ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصير
والتمكن ...

كذلك أنت يا محمد ستخرج من بلدك مكة مهاجرا ... ثم تعود إليها في
الوقت الذي يشاؤه الله ظافرا منتصرا ، (١) .

وبعد : فهذا تعريف لسورة يوسف ، رأينا أن نسوقه قبل البدء في تفسيرها ،
لعله يعين على فهم ما اشتملت عليه من حكم وأحكام . ومن عبر وعظات ...
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

« التفسير »

قال الله تعالى : « الر • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) » .

افتتحت سورة يوسف - عليه السلام - ببعض الحروف المقطعة . وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء في هذه الحروف في سور: البقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود .

وقلنا ماملخصه : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن الكريم .

فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله - تعالى - : ها كم القرآن تروونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تأولفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ...

فإن كنتم في شك من كونه متزلاً من عند الله فها تواتوا مثله ، وادعوا من
شتم من الخلق الحكيم يعاونكم في ذلك .

ومما يشهد لصحة هذا الرأي : أن الآيات التي تلى هذه الحروف المقطعة
تراها تتحدث - صراحة أو ضمناً - عن القرآن الكريم وعن كونه من عند
الله - تعالى - وعن كونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - ففي مطلع
سورة البقرة : د ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ... ،

وفي مطلع سورة آل عمران : د ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل
عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل ... ،

وفي أول سورة الأعراف : ألمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك
حرج منه ،

وفي أول سورة يونس : د أ لر . تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان
للناس عجباً أن أوحيًا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن
لهم قدم صدق عند ربهم ،

وفي أول سورة هود : د أ لر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن
حكيم خبير ،

وهكذا نجد أن معظم الآيات التي تلى الحروف المقطعة ، منها ما يتحدث
عن أن هذا الكتاب من عند الله - سبحانه - ومنها ما يتحدث عن وحدانية
الله - تعالى - ، ومنها ما يتحدث عن صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم -
في دعوته ،

وهذا كله لتنبية الغافلين إلى أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه المعجزة
الخالدة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم قال - تعالى - : تلك آيات الكتاب
المبين ، .

وذلك ، اسم إشارة ، المشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن
الكريم ، ويندرج فيها آيات السورة التي معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتب . وأصل الكتب ضم أديم إلى آخر بالخطاطة . واستعمل عرفا في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط . والمراد به القرآن الكريم .

والمبين ، أى الواضح الظاهر من أبان بمعنى بان أى ظهر .

والمعنى : تلك الآيات التى نقلوها عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة وفى غيرها ، هى آيات الكتاب الظاهر أمره ، الواضح إعجازه ، بحيث لا تشبهه على العقلاء حقائقه ، ولا تلتبس عليهم هداياته .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب الكريم ، مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزاله بلسان عربى مبين فقال : إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون .

أى : إنا أنزلنا هذا الكتاب الكريم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - بلسان عربى مبين ، لعلكم أيها المكلفون بالإيمان به ، تعقلون معانيه ، وتفهمون ألفاظه ، وقتفعون بهداياته ، وتدركون أنه ليس من كلام البشر ، وإنما هو كلام خالق القوى والقدر وهو الله - عز وجل - .

فالضمير فى ، أنزلناه ، يعود إلى الكتاب ، وقرآنا حال من هذا الضمير أو بدلا منه .

والتأكيد بحرف إن متوجه إلى خبرها وهو أنزلناه ، لارد على أولئك المشركين الذين أنكروا أن يكون هذا القرآن من عند الله .
وجملة ، لعلكم تعقلون ، بيان لحكمة إنزاله بلغة العرب .

وحذف مفعول « تعقلون » ، الإشارة إلى أن نزوله بهذه الطريقة ، يترتب عليه حصول تمقل أشياء كثيرة لا يحصىها العد .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه قوله : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية المعاني التي تقوم بالنفوس ، فلم هذا أنزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وفي أشرف شهور السنة ، فمكمل له الشرف من كل الوجوه ، (١) .

وقال الجمل : واختلف العلماء هل يمكن أن يقال في القرآن شيء غير عربي . قال أبو عبيدة : من قال بأن في القرآن شيء غير عربي فقد أعظم على الله القول . واحتج بهذه الآية .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة بأن فيه من غير العربي مثل : سجيل ، والمشكاة ، واليم ، وإستبرق ونحو ذلك .

وهذا هو الصحيح المختار ، لأن هؤلاء أعلم من أبي عبيدة بلسان للعرب . وكلا القولين صواب - إن شاء الله - .

ووجه الجمع بينهما أن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ، ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة ، وإن كانت غير عربية في الأصل ، ولكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم ، وصارت لهم لغة ، فظاهر بهذا البيان صحة القولين ، وأمكن الجمع بينهما ، (٢) ، ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص وأحكمها وأصدقها فقال - تعالى - : نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٣ . طبعة دار الشعب

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤٣٢ .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : القصص : اتباع الخبر بعضها بعضا ، وأصله في اللغة المتابعة قال - تعالى - وقالت لأخته قصيه .. ، أى اتبعى أثره . وقال - تعالى - : فارتداعلى آثارهما قصصا ، أى : اتباعا . وإنما سميت الحكايا قصصا ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا ، كما يقال : تلا فلان القرآن ، أى قرأه آية فآية (١) ، ..

والمعنى : نحن نقص عليك - أيها الرسول الكريم - أحسن القصص أى : وأحسن أنواع البيان ، وأوفاه بالغرض الذى سيق من أجله .

وإنما كان قصص القرآن أحسن القصص لاشتيائه على أصدق الأخبار وأبلغ الأساليب ، وأجمعها للحكم والعبر والعظات .

والباء فى قوله د بما أوحينا إليك هذا القرآن ، للسببية متعلقة بنقص و د ما ، مصدرية .

أى : نقص عليك أحسن القصص ، بسبب إيجائنا إليك هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى هو فى الذروة العلم فى بلاغته وتأثيره فى النفوس .

وجملة د وإن كنت من قبله لمن الغافلين ، فى موضع الحال من كاف الخطار فى د إليك ، و د إن ، مخففة من الثقيلة ؛ واسمها ضمير الشأن محذوف . والضمير فى قوله د من قبله ، يعود إلى الإيحاء المفهوم من قو د أوحينا ، .

والمعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب ما أوحيناه إليك ه هذا القرآن .

والحال أنك كنت قبل إيجائنا إليك بهذا القرآن ، من الغافلين عن

تفاصيل هذا القصص ، وعن دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك في ذلك شأن قومك الأميين .

قال - تعالى - تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ، .

ثم حكى - سبحانه - قصة يوسف - عليه السلام - كمثل لأحسن القصص فقال - تعالى - « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ، .

و « إذ ، ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر

ويوسف : اسم أعجمي ، مشفق - كما يقول الألوسي - من الأسف ، وسمى به لأسف أبيه عليه .

وأبوه ؛ هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم .

وقوله : « يا أبت ، أصله يا أباي ، فحذفت الياء وعوض عنها تاء التأنيث ، ونقلت إياها كسرة الباء ، ثم فتحت الباء لمناسبة تاء التأنيث .

والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - وقت أن قال يوسف لأبيه ، يا أبت إني رأيت في منامي « أحد عشر كوكبا ، تسجد لي . ورأيت كذلك « الشمس والقمر ، لي ساجدين .

ولم يدرج الشمس والقمر في الكواكب مع أنها منها ، لإظهار مزيتهما ورفعاً لشأنهما ، وجملة « رأيتهم لي ساجدين ، مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها .

وأجريت هذه الكواكب مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم ، لوصفها

بوصفهم حيث إن السجود من صفات العقلاء ، والعرب تجمع مالا يعقل جم
من يعقل إذا أنزلوه منزلته .

قال ابن كثير : وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحدهش
كو كبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة
عن أبيه وأمه .

روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك . وقتادة ، وسفيان الثوري ، وعبد الرحمن
ابن زيد ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وقيل بعد ثمانين سنة ، وذلك
حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره . وإخوته بين يديه .. وخروا
سجدا وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقا ...^(١)
ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص
عليه رؤياه فقال : قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك
كيذا ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين .

وقوله « يا بني » تصغير ابن . والتصغير هنا سببه صغر سنه مع الشفقة
عليه ، والتلطف معه .

وقوله « رؤياك » من الرؤيا التي هي مصدر رأى الحلمية الدالة على ما وقع
للإنسان في نومه ، أما رأى البصرية فيقال في مصدرها الرؤية .

وقوله « فيكيدوا لك ... » من الكيد وهو الاحتيال الخفي بقصد الإضرار
والفعل كاد يتعدى بنفسه ، فيقال : كاده يكيد كيدا ، إذا احتال لإهلاكه
ولتضمنه معنى احتال عدى باللام .

والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بشفقة ورحمة
بعد أن سمع منه ما رآه في منامه : « يا بني » لا تخبر إخوتك بما رأيت في منامك

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٨ .

فإنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا لإهلاكك احتيالا خفيا ، لا قدرة لك على مقاومته أو دفعه .

وإنما قالوا له ذلك ، لأن هذه الرؤيا تدل على أن الله - تعالى - سيعطى يوسف من فضله عطاء عظيما ، ويهبه منصبا جليلا ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من كثير من الناس ، يخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له ، إذا ما قص عليهم رؤياه ، ومن عدوانهم عليه .

والتمنوين في قوله : كيدا ، للتعظيم والتهويل ، زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم .

وجملة : إن الشيطان للإنسان عدو مبين ، واقعة موقع التعليل للنهي عن قص الرؤيا على إخوته ، وفيها إشارة إلى أن الشيطان هو الذي يغريهم بالكيد له إذا ما قص عليهم ما رآه ، وبذلك لا يشير في نفسه السكراهة لإخوته .

أى : لا تخبر إخوتك بما رأيته في منامك ، فيحتالوا للاضرار بك حسدا منهم لك ، وهذا الحسد يغرسه الشيطان في نفوس الناس ، لتتولد بينهم العداوة والبغضاء ، فيفرح هو بذلك ، إذ كل قبيح يقوله أو يفعله الناس يفرح له الشيطان ..

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها :

أنه يجوز للإنسان في بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التي أنعم الله بها عليه ، خشية حسد الحاسدين ، أو عدوان المعتمدين .

وأن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين زكت نفوسهم فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه .

ومن الأحاديث التي وردت في فضل الرؤيا الصالحة ما رواه البخاري عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : أول ما بدى به رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصادقة ، فيكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ..

وفي حديث آخر : « الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »

وفي حديث ثالث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهي الرؤيا الصالحة للرجل الصالح ، يراها أو ترى له ، (١) » .

كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ..

قال الألوسي عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : والظاهر أن القوم - أي إخوة يوسف - كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، ويؤيد ذلك أنهم لم يكونوا أنبياء ..

وهذا ما عليه الأكثر من سلفنا وخلفنا . أما السلف فإنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أو التابعين أنه قال بنبوتهم ..

وأما الخلف فكثير منهم نفى عنهم أن يكونوا أنبياء ، وعلى رأس من قال بذلك الإمام ابن تيمية ، في مؤلف له خاص بهذه المسألة ، وقد قال فيه :

الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار ، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء وليس في القرآن ولا في السنة ما يشير إلى أنهم كانوا أنبياء (٢)

ثم حكى - سبحانه - ما توقعه يعقوب لابنه يوسف من خير وبركة فقال : « وكذلك يجتهدك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أنهما على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليهما حكيم .. »

(١) لمعرفة المزيد عن الرؤيا المنامية راجع تفسير القاسمي ج ٩ ص ٥٠٨

(٢) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٦٤

والمكاف في قوله ، وكذلك ، حرف تشبيه بمعنى مثل ، وهي داخلة على كلام محذوف .

وقوله ، يجتبيك ، من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار ، مأخوذ من جبيت الشيء إذا اخترته لما فيه من النفع والخير .

و د تأويل الأحاديث ، معناه تفسيرها تفسيراً صحيحاً ، إذ التأويل مأخوذ من الأول بمعنى الرجوع ، وهو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه .

والأحاديث جمع تكسير مفردة حديث ، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحدث بها .

والمعنى : وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة . فإنه - سبحانه - يجتبيك ويختارك لأمر عظام في مستقبل الأيام ، حيث يهبك من صدق الحس ، ونفاذ البصيرة ، ما يجعلك تدرك الأحاديث إدراكاً سليماً ، وتعبر الرؤى تعبيراً صحيحاً صادقاً .

د ويتم نعمته عليك ، بالنبوة والرسالة والملك والرياسة ، وعلى آل يعقوب وهم إخوته وفريتهم ، بأن يسبح عليهم الكثير من نعمه .

د كما أتمها على أبويك من قبل ، أى : من قبل هذه الرؤيا أو من قبل هذا الوقت .
وقوله د إبراهيم وإسحاق ، بيان لأبويه .

أى : يتم نعمته عليك إتماماً كإتمام نعمته على أبويك من قبل ، وهما إبراهيم وإسحاق بأن وهبهما - سبحانه - النبوة والرسالة .

وعبر عنهما بأفهاما أبوان ليوسف ، مع أن إبراهيم جد أبيه ، وإسحاق جده ، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء - عليهم السلام - ، وللمبالغة في إدخال السرور على قلبه ، ولأن هذا الاستعمال مألوف في لغة العرب ، فقد كان أهل مكة يقولون للنبي - صلى الله عليه وسلم - يابن عبد المطلب ، وأثر عنه صلى الله عليه وسلم - أنه قال : أنا النبي لا كذب - أنا ابن عبد المطلب .
وجملة د إن ربك عليم حكيم مستأنفة لتأكيد ما سبقها من كلام .

نى : لمن ربك عليم بمن يصطفيه لحل رسالته . وبمن هو أهل النعمة
وكرامته ، حكيم فى صنعه وتصرفاته .

وبذلك نرى الآيات السكريمة قد نوهت بشأن القرآن الكريم ، وساقط
بأسلوب حكيم ما قاله يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بعد أن قص
ما رآه فى المنام .

تم حكى - - بحانه - بعد ذلك حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه ،
وحالتهم وهم يجادلون أباهم فى شأنه ، وحالتهم وهم ينفذون مؤامرتهم المنكرة
وحالتهم بعد أن نفذوها وعادوا إلى أبيهم ليلاً بقا كون فقال تعالى - :

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا
لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ
مِّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيُّكُمْ ،
وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ
وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)
قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ
مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنَّ
تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا
لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ
وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ
هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) » .

وقوله - سبحانه - : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » ، شروع في حكاية قصة يوسف مع أخوته ، بعد أن بين - سبحانه - صفته القرآن الكريم ، وبعد أن أخبر عما رآه يوسف في منامه ، وما قاله أبوه له ...

وإخوة يوسف هم : رأبين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وأشير ، وبنيامين .

والآيات : جمع آية والمراد بها هنا للعبر والعظات والدلائل الدالة على قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العباد له .

والمعنى : لقد كان في قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة ، ودلائل تدل على قدرة الله القاهرة ، وحكمته الباهرة ، وعلى ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر ، وعلى ما للحسد والبغى من شروء وخذلان ...

وقوله : « للسائلين » ، أى : لمن يتوقع منهم السؤال ، بقصد الإلتفات بما ساقه القرآن الكريم من مواعظ وأحكام .

أى : لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته ، آيات عظيمة ، لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للإلتفات بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه .

وهذا الافتتاح لتلك القصة ، كفيل بتحريك الإلتباه لما سيلقى بعد ذلك منها ، من تفصيل لأحداثها ، وبيان لما جرى فيها .

وقوله - سبحانه - : « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ... » .

بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم ، قبل أن ينفذوا جريمتهم .

و « إذ » ظرف متعلق بالفعل « كان » ، في قوله - سبحانه - قبل ذلك : « لقد كان في يوسف وإخوته .. »

واللام في قوله « ليوسف » ، لتأكيد أن زيادة محبة أبيهم ليوسف وأخيه أمر ثابت ، لا يقبل التردد أو التشكك .

والمراد بأخيه : أخوه من أبيه وأمه وهو ، بنيامين ، وكان أصغر من يوسف - عليه السلام - أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط .

ولم يذكره باسمه ، للاشعار بأن محبة يعقرب له ، من أسبابها كونه شقيقا ليوسف ، ولذا كان حسدهم ليوسف أشد .

وجملة ونحن عصبة ، حالية . والعصبة كلمة تطلق على ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال ، وهي مأخوذة من العصب بمعنى الشد ، لأن كلا من أفرادها يشد الآخر ويقويه ويعضده ، ولأن الأمور تعصب بهم . أى : تشتد وتقوى

أى : قال إخوة يوسف وهم يتشاورون فى المكربه : ليوسف وأخوه بنيامين أحب إلى قلب أبينا منا ، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وأخويه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : « إن أبانا لى ضلال مبين » ، تذييل قصدوا به دره الخطأ عن أنفسهم فيما سببوه لبيوسف وللقائه على أبيهم الذى فرق بينهم - فى زعمهم - فى المعاملة .

والمراد بالضلال : هنا عدم وضع الأمور المتعاقبة بالأبناء فى موضعها الصحيح ، وليس المراد به الضلال فى الحقيقة والدين .

أى : إن أبانا لى خطأ ظاهر ، حيث فضل فى المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء النافعين له القادرين على خدمته .

قال القرطبى : لم يريدوا بقولهم « إن أبانا لى ضلال مبين » ، الضلال فى الدين ، إذ لو أرادوه لكافروا كفارا ؛ بل أرادوا ؛ إن أبانا لى ذهاب عن وجه التدبير فى إشارة اثنين على عشرة ، مع استوائهم فى الإقتساب إليه ،^(١)

وهذا الحكم منهم على أبيهم ليس فى محله ، لأن يعقرب - عليه السلام - كان عنده من أسباب التفضيل ليوسف عليهم ما ليس عندهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : يروى أن يعقوب - عليه السلام - كان يوسف أحب إليه لما يرى فيه من المناقب الحميدة ، فلدارأى الرؤيا تضاعفت له المحبة . وقال بعضهم : إن زيادة حبه ليوسف وأخيه ، صغرهما ، وموت أمهما ، وقد قيل لإحدى الأمهات : أى بنيك أحب إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يشفى .

ولألوم على الوالد فى تفضيله بعض ولده على بعض فى المحبة لمثل ذلك وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست بما يدخل تحت وسع البشر ... (٢)

ثم أخبر - سبحانه - عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال - تعالى - : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين » .

ولفظ « اطرحوه » مأخوذ من الطرح ، ومعناه رمى الشئ - وإلقاءه بعيداً . ولفظ « أرضاً » منصوب على نزع الخافض ، والتنوين فيه للإبهام . أى : أرضاً مجهولة .

والمعنى : لقد بالغ أبونا فى تفضيل يوسف وأخيه علينا ، مع أننا أولئ بنلك منهما ، وما دام هو مصرأ على ذلك ، فالحل أن تقتلوا يوسف ، أو أن تلقوا به فى أرض بعيدة مجهولة حتى يموت فيها غريباً ...

قال الآلوسى : وحاصل المعنى : اقتلوه أو غربوه ، فإن التغريب كالقتل فى حصول المقصود ، ولعمري لقد ذكروا أمرين مرين ، فإن الغربة كربة أبة كربة ، والله - تعالى - دور القائل :

حسنوا القول وقالوا غربة إنما الغربة للأحرار ذبح

وجملة « يخل لكم وجه أبيكم » جواب الأمر .

والخلو : معناه الفراغ . يقال خلا المكان يخلو خلوا وخلاء ، إذا لم يكن به أحد .

والمعنى اقتلوا يوسف أو اقدفوا به في أرض بعيدة مجهولة حتى يموت ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشارككم فيها أحد ، فيقبل عليكم بكلية ، ويكن كل توجهه إليكم وحنكم ، بعد أن كان كل توجهه إلى يوسف .

قال صاحب الكشف : قوله : يخل لكم وجه أبيكم ، أى : يقبل عليكم لإقبالة واحدة ، لا يلتفت عنكم إلى غيركم . والمراد سلامة محبة لهم من يشاركهم فيها ، وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل عليه بوجهه (١)

وقوله : وتكونوا من بعده قوما صالحين ، معطوف على جواب الأمر .
أى : وتكونوا من بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه في أرض بعيدة ، قوما صالحين في دينكم ، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك فيقبل الله توبتكم ، والصالحين في دنياكم بعد أن خلعت من المنغصات التي كان يشيرها وجود يوسف بينكم .

وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد ، وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد تقديرها الصحيح للأمور ، وتحاول التخلص من يراحها بالقضاء عليه ، وتصور الصغائر في صورة الكبائر ، والكبائر في صورة الصغائر . .

فإخوة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم ، يستحق لإزهاق روح الأخ ، وفي الوقت نفسه يرون أن هذا الإزهاق للروح البريئة شيء هين ، في الإمكان أن يعودوا بعده قوما صالحين أمام خالقهم ، وأمام أبيهم ، وأمام أنفسهم

(١) تفسير الكشف ٢ ص ٣٠٥ .

وقوله - سبحانه - : قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة
الجب يلتقطه بهض السيارة إن كنتم فاعلين ، بيان الرأى الذى اقترحه أحدهم
واستقر عليه أمرهم .

قال القرطبي ما أخذه : قوله وألقوه في غيابة الجب ، قرأ أهل مكة وأهل
البصرة وأهل الكوفة ، في غيابة الجب ، - بالإفراد - ، وقرأ أهل المدينة
في غيابات الجب ، - بالجمع - ...

وكل شيء غيب عنك شيئاً فهو غيابة ، ومنه قيل للقبر غيابة . قال الشاعر
فإن أنا يوماً غيبتنى غيابتى فسيروا بسيرى في العشيرة والأهـ

والجب : الركبة - أى الحفرة - التى لم تطو - أى لم تبني بالحجارة - فإذ
ظويت فهي بئر . وسميت جباً لأنها قطعت في الأرض قطعاً . وجمع الجب جباب
وجباب وأجباب ...

وجمع بين الغيابة والجب ، لأنه أراد ألقوه في موضع مظلم من الجب
لا يلحقه نظر الناظرين ... (١) .

والسيارة : جمع سيار ، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالغون
السير ليصلوا إلى مقصودهم .

والمعنى : قال قائل من إخوة يوسف أفرعه ما هم مقدمون عليه بشأن أخيه
الصغير : لا تقتلوا يوسف ، لأن قتله جرم عظيم ، وبدلاً من ذلك ، ألقوه
قفر الجب حيث يغيب خبره ، إلى أن يلتقطه من الجب بعض المسافرين
فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم ، وبذلك تستريحون منه ويخل لكم و
أيكم .

ولم يذكر القرآن اسم هذا القائل أو وصفه ، لأنه لا يعلق بذكر ذا
غرض وقد رجح بعض المفسرين أن المراد بهذا القائل « يهوذا » .

(١) تفسير القرطبي ، ج ٩ ص ١٣٢ .

والفائدة في وصفه بأنه منهم ، الإخبار بأنهم لم يجمعوا على قتله أو طرحه في أرض بعيدة حتى يدركه الموت .

وأتى باسم يوسف دون ضميره ، لاستدراار عطفهم عليه ، وشفقتهم به ، واستعظام أمر قتله .

وجواب الشرط في قوله إن كنتم فاعلين ، محذوف ، لدلالة « وألقوه » عليه والمعنى : إن كنتم فاعلين ما هو خير وصواب ، فآلقوه في غيابة الجب ، ولا تقتلوه ولا تطرحوه أرضا .

وفي هذه الجملة من هذا القائل ، محاولة منه لتثبيطهم عما اقترحوه من القتل أو التعريب بأسلوب بليغ ، حيث فوض الأمر إليهم ، تعظيما لهم ، وحذرا من سوء ظنهم به ، فكان أمثلهم رأيا ، وأقربهم إلى التقوى .

قالوا : وفي هذا الرأي عبرة في الاقتصاد من الانتقام ، والإكتفاء بما يحصل به الغرض دون إفراط ، لأن غرضهم إنما هو إبعاد يوسف عن أبيهم ، وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقاءه في غيابة الجب .

ثم حكى — سبحانه — محاولاتهم مع أبيهم ، لبأذن لهم بخروج يوسف معهم فقال : قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم : يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ، أى : شئ جعلك لا تأمنا على أخينا يوسف في خروجه معنا ، والحال أننا له لناصحون ، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص ، والود الصادق .

وفي ندائهم له بلفظ « يا أبانا » استمالة لقلب ، وتحريك لعطفه ، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم .

والاستفهام في قوله « مالك لا تأمنا ... » ، للتعجيب من عدم أمانهم عليه

مع أنهم إخوته ، وهو يوحى بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك في اصطحابه معهم ولكنهما جميعا باءت بالفشل .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : أرسله معنا غدا يرقع ويلعب . . .

والرتع والرتوع هو الإتساع في الملاذ والتنعم في العيش ، يقال : رتع الإنسان في النعمة إذا أكل ما يطيب له . ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبع ، وفعله كمنع والمراد باللعب هنا الاستجمام ورفع السامة ، كالنسابق عن طريق العدو ، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة .

أى : أرسله معنا غدا ليتسع في أكل الفواكه ونحوها ، وليدفع السامة عن نفسه عن طريق القفز والجري والنسابق معنا .

« وإنا له لحافظون » كل الحفظ من أن يصيبه مكروه ، أو يمسه سوء .

وقد أكدوا هذه الجملة والتي قبلها وهي قوله : وإنا له لناصحون ، بألوان من المؤكدات ، لىكي يستطيعوا الحصول على مقصودهم فى اصطحاب يوسف معهم .

وهو أسلوب يبدو فيه التحايل الشديد على أبيهم ، لإقناعه بما يريدون تنفيذه وتحقيقه من مأرب سيئة .

ثم أخبر — سبحانه — عما رد به عليهم أبوه فقال : قال لى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون ، .

والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب .

والخوف : فزع النفس من مكروه يتوقع حصوله .

والذئب : حيوان معروف بعذوانه على الضعاف من الإنسان ومن

الحيوان ، وأل فيه للجنس ، والمراد به أى فرد من أفراد الذئاب .

أى : قال يعقوب لأبنائه ردا على إلحاحهم فى طلب يوسف للذهاب معهم :

يا أبنائى لى ليحزننى حزنا شديدا فراق يوسف لى ، وفضلا عن ذلك فإننى

أخشى إذا أخذتموه معكم في رحلتكم أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون .
بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم ، وقلة اهتمامكم برعايته وحفظه .
قالوا ، وخص الذئب بالذكر من بين سائر الحيوانات ، ليشعرهم بأن
خوفه عليه مما هو أعظم من الذئب قوحشا وافتراسا أشد وأولى .
أو خصه بالذكر لأن الأرض التي عرفوا بالنزول فيها كانت كثيرة الذئاب .
وقوله - سبحانه - : « قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا
لخاسرون » رد مؤكد من إخوة يوسف على تخوف أبيهم وتردده في إرساله
معه ، إذ اللام في قوله : « لئن » موطئة للقسم . وجواب القسم قوله :
« إنا إذا لخاسرون » .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه ، وإزالة
الحزن والخوف عن نفسه : يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ،
ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته ، إنا إذا في هذه الحالة
لخاسرون خسارة عظيمة ، نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شىء نافع .

وأخيرا استسلم الأب ، لإلحاح أبنائه الكبار ، ليتحقق قدر الله الذى قدره
على يوسف ، ولتسير قصة حياته فى الطريق الذى شاء الله تعالى - له أن
تسير فيه .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن
يجعلوه فى غيابة الجب ، وأوحينا لإيمه لتنبيههم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » .
أى : فلما أقنعوا أباهم بإرسال يوسف معهم ، وذهبوا به فى الغد إلى حيث
يريدون ، وأجمعوا أمرهم على أن يلحقوا به فى قعر الجب ، فعملوا به ما فعلوا من
الأذى ، ونفذوا ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقه .

فالفاء فى قوله « فلما » للتفريع على كلام مقدر ، وجواب « لما » محذوف ،
دل عليه السياق وفعل « أجمع » يتعدى إلى المفعول بنفسه ، ومعناه العزم
والتصميم على الشىء ، تقول : أجمعت السير أى : عزمت عزما قويا عليه .

وقوله ، أن يجهلوه ، مفعول أجمعوا .

قال الألوسي : والروايات في كيفية إلقائه في الجب ، وما قاله لإخوته عند إلقائه وما قالوه له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر ، لكن ليس فيها ماله سند يعول عليه ،^(١) والضمير في قوله ، وأوحينا إليه ، يعود على يوسف - عليه السلام - .

أى : وأوحينا إليه عند إلقائه في الجب عن طريق الإلهام القلبي ، أو عن طريق جبريل - عليه السلام - أو عن طريق الرؤيا الصالحة ...

، لتنبئهم بأمرهم هذا ، أى : لتخبرهم في الوقت الذي يشاؤه الله - تعالى - في مستقبل الأيام ، بما فعلوه معك في صخرك من إلقاءك في الجب ، ومن إنجاء الله - تعالى - لك فالمراد بأمرهم هذا : إيدائهم له ، وإلقاءهم إياه في قعر الجب ، ولم يصرح - سبحانه - به ، لشدة سناعته .

وجملة ، وهم لا يشعرون ، حالية ، أى : والحال أنهم لا يحسون ولا يشعرون في ذلك الوقت الذي تخبرهم فيه بأمرهم هذا ، بأنك أنت يوسف ، لا عتقادهم أنك قد هلكت في وطول المدة التي حصل فيها الفراق بينك وبينهم ، ولتباين حالك وحالهم في ذلك الوقت ، فأنت ستكون الأمين على خزائن الأرض ، وهم سيقدمون عليك فقراء يطلبون عونك ورفدك ...

وقد تحقق كل ذلك - كما سيأتى - عند تفسير قوله تعالى - : ولما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ... ،

وكان هذا الإيحاء - على الأرجح - قبل أن يبلغ سن الحلم ، وقبل أن يكون نبيا .

وكان المقصود منه ، إدخال الطمأنينة على قلبه ، وتبشيريه بما سيصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان .

(١) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٧٧ .

قالوا : وكان هذا الجب الذى ألقى فيه يوسف على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام - بفلسطين .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم لأبيهم بعد أن فعلوا فعلتهم وعادوا إليه ليلا يسكون فقال : « وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، » .

والعشاء : وقت غيبوبة الشفق الباقى من بقايا نداء الشمس ، وبدء حلول الظلام والمراد بالبكاء هنا : البكاء المصطنع للتمويه والخداع لأبيهم ، حتى يقنعوه - فى زعمهم - أنهم لم يقصروا فى حق أخبهم .

أى : وجاءوا أباهم بعد أن أقبل الليل بضلامه يتباكون ، متظاهرين بالحزن والأسى لما حدث ليوسف ، وفى الأمثال : « دموع الفاجر بيديه » .

« قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ، أى : تقسابق عن طريق الرمي بالسهم ، أو على الخيل ، أو على الأقدام . يقال : فلان وفلان استبقا أى : تسابقا حتى ينظر أيهما يسبق الآخر .

« وتركنا يوسف عند متاعنا ، أى : عند الأشياء التى نتمتع بها وننتفع فى رحلتنا ، كالثياب والأطعمة وما يشبه ذلك .

« فأكله الذئب ، فى تلك الفترة التى تركناه فيها عند متاعنا .

والمراد : قتله الذئب ، ثم أكله دون أن يبقى منه شيئا قدفنه .

« وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، أى : وما أنت بمصدق لنا فيما أخبرناك به من أن يوسف قد أكله الذئب ، حتى ولو كنا صادقين فى ذلك ، لسوء ظنك بنا ، وشدة محبتك له .

وهذه الجملة الكريمة قرحى بكذبهم على أبيهم ، وبمخادعتهم له ، ويكاد المريب أن يقول خذونى - كما يقولون - .

ولكنهم لم يكتفوا بهذا التباكى وبهذا القول ، بل أضافوا إلى ذلك تمويهها آخر حكاه القرآن فى قوله « وجاءوا على قبيصه بدم كذب » أى : بدم

ذى كذب ، فهو مصدر بتقدير مضافه ، أو وصف الدم بالمصدر مبالغة ، حتى
لكأنه الكذب بعينه ، والمصدر هنا بمعنى المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق ،
أى : بدم مكذوب .

والمعنى : وبعد أن ألقوا يوسف فى الجب ، واحتفظوا بقميصه معهم ،
وضعوا على هذا القميص دما مصطنعا ليس من جسم يوسف ، وإنما من جسم
شئ آخر قد يكون ظبيا وقد يكون خلافة .

وقال - سبحانه - ، على قميصه ، للإشعار بأنه دم موضوع على ظاهر
القميص وضعا منكلفا مصطنعا ، ولو كان من أثر افتراس الذئب لصاحبه ،
لظهر التمزق والتخريق فى القميص ، ولتغلغل الدم فى كل قطعة منه .

ولقد أدرك يعقوب - عليه السلام - من قسبات وجوهم ، ومن دلائل
حالهم ، ومن فداء قلبه المفجوع ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأن هؤلاء
المتبائسين هم الذين دبروا له مكيدة ما ، وأنهم قد اصطنعوا هذه الحيلة المكشوفة
مخادعة له ، ولذا جابههم بقوله : قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا

والقسويل : التسهيل والتزوين . يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل
أى زينة وحسنه له ، وصورته له فى صورة الشئ الحسن مع أنه قبيح :
أى : قال يعقوب لأبنائه بأسمى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا
ما قالوا : قال لهم ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما
الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه هى التى زينت لكم أن تفعلوا معه فعلا سيئا قبيحا ،
ستكشف الأيام عنه بإذن ربى ومشيئته .

ونكر الأمر فى قوله : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، لاحتماله عدة أشياء
كما يمكن أن يؤذوا به يوسف ، كالقتل ، أو التغريب ، أو البيع فى الأسواق
لأنه لم يمكن يعلم على سبيل اليقين ما فعلوه به .

وفى هذا التذكير والإبهام - أيضا - ما فيه من التهويل والتشنيع لما

اقترفوه في حق أخيهيم وقوله : فصبر جميل ، أن : فصبري صبر جميل وهو الذي لا شكوى فيه لأحد سوى الله - تعالى - ولا رجاء معه إلا منه - سبحانه - .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : والله المستعان على ماتصفون ، أي : والله - تعالى - هو الذي أستعين به على احتمال ماتصفون من أن ابني يوسف قد أكله الذئب .

أو المعنى : والله - تعالى - وحده هو المطلوب عونته على إظهار حقيقة ماتصفون ، وإثبات كونه كذبا ، وأن يوسف مازال حيا ، وأنه - سبحانه - سيجمعني به في الوقت الذي يشاؤه .

قال الآلوسي : أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن إخوة يوسف - بعد أن ألقوا به في الجب - أخذوا ظبيا فذبحوه ، لطنخوا بدمه قيصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم جعل يقلبه ويقول : تا الله مارأيت كاليوم ذئبا أحل من هذا الذئب !! أكل ابني ولم يمزق عليه قيصه (١)

وقال القرطبي : استدلل الفقهاء بهذه الآية في أعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب - عليه السلام - قد استدلل على كذب أبنائه بصحة القميص ، وهذا كذا يجب على الحاكم أن يلاحظ الأمارات والعلامات (٢)

وقال الشيخ القاسمي مملخصه : وفي الآية من الفوائد : أن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود وبمن يراعيه ... وأن الحاسد إذا ادعى النصيح والحفظ والمحبة ، لم يصدق ، وأن من طلب مراده بمعصية الله - تعالى - فضحه الله - عز وجل - ، وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا ينجي منه ... (٣)

(١) تفسير الآلوسي > ١٢ ص ١٧٩ .

(٢) تفسير القرطبي > ٩ ص ١٥٠ .

(٣) تفسير القاسمي ص ٣٥٢٠ .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد حكّت لنا بأسلوبها البليغ ، وتصويرها المؤثر ، ما تآمر به إخوة يوسف عليه ، وما اقترحوه لتنفيذ مكرهم ، وما قاله لهم أوسطهم عقلاً ورأياً ، وما تحايّلوا به على أبيهم لكي يصلوا إلى ما يريدون ، وما رد به عليهم أبوهم ، وما قالوه له بعد أن نفذوا جريمتهم إلى أخيم . بأن ألقوا به في الجب ...

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتقص علينا مرحله أخرى من مراحل حياة يوسف - عليه السلام - حيث حدثتنا عن انتقاله من الجب ، وعن بيعه بثمن بخس وعن وصية الذي اشتراه لأمرائه ، وعن مظاهر رعاية الله - تعالى - له فقال - سبحانه - :

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ ، وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامِرَأَتِهِ ، أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) » .

فقله - سبحانه - : « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه ... » .
شروع في الحديث عما جرى ليوسف من أحداث بعد أن ألقى به إخوته في الجب .

والسيارة : جماعة المسافرين ، وكانوا - كما قيل - متجهين من بلاد الشام إلى مصر .

والوارد : هو الذى يرد الماء ليستقى للناس الذين معه . ويقع هذا اللفظ على الفرد والجماعة . فيقال لكل من يرد الماء وارد ، كما يقال للماء مورود . وقوله : فادلى ، من الإدلاء بمعنى إرسال الدلو فى البئر لأخذ الماء . والدلو : إناء معروف يوضع فيه الماء .

وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير : وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب وتركوه وانصرفوا لشأنهم . جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين ، فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليستقوا ، فوجد جباً ، فادلى دلوه فيه ، فتعلق به يوسف ؛ فلما خرج ورآ فرح به وقال : يا بشرى هذا غلام .

وأوقع النداء على البشرى ، للتعبير عن ابتهاجه وسروره ، حتى لكأنه شخص عاقل يستحق النداء . أى : يا بشرتى أقبلى فهذا أوان إقبالك . وقيل المنادى محذوف والتقدير : يا رفاقى فى السفر أبشروا فهذا غلام وقد خرج من الجب .

وقرأ أهل المدينة ومكة : يا بشرى هذا غلام . بإضافة البشرى إلى المتكلم .

والضمير المنصوب وهو الهاء فى قوله : وأسروه بضاعة ، يعود إلى يوسف أما الضمير المرفوع فيعود إلى السيارة . وأسره من الإسرار الذى هو الإعلان .

وبضاعة : عروض التجار : ومتاعها . وهذا اللفظ مأخوذ من البضع بمعنى القطع ، وأصله جملة من اللحم تبضع أى : تقطع . وهو حال من الضم المنصوب فى : وأسروه . .

والمعنى : وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من الجب مخافة يطلبه أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبروه بضاعة سرية لهم ، وعزه على بيعه على أنه من العبيد الأرقاء .

وأهل يوسف عليه السلام - قد أخبرهم بقصته بعد إخراجهم من الحب .
ولكنهم لم يلتفتوا إلى ما أخبرهم به طمعا في بيعه والانتفاع بشمنه .
ومن المفسرين من يرى أن الضمير المرفوع في قوله « وأسرره » يعود
على الوارد ورفاقه ؛ فيكون المعنى :

وأسر الوارد ومن معه أمر يوسف عن بقية أفراد القافلة . مخافة أن يشاركهم
في ثمنه إذا علموا خبره ، وزعموا أن أهل هذا المكان الذي به الحب دفعوه إليهم
ليبيعوه لهم في مصر على أنه بضاعة لهم .
ومنهم من يرى أن الضمير السابق يعود إلى إخوة يوسف .

قال الشوكاني ما ملخصه : وذلك أن يهوذا كان يأتي إلى يوسف كل يوم
بالطعام . فأتاه يوم خروجه من الحب فلم يجد ، فأخبر إخوته بذلك ، فأتوا
إلى السيارة وقالوا لهم : إن الغلام الذي معكم عبد لنا قد أبق ، فاشتروه منه .
فاشتروه منهم بثمان بخس ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذ إخوته فيقتلوه ، (١)

وعلى هذا الرأي يكون معنى « وأسرره بضاعة » : أخفى إخوة يوسف
كوته أخواهم ، واعتبروه عرضا من عروض التجارة القابلة للبيع والشراء .
ويكون المراد بقوله - تعالى - بعد ذلك « وشروه بثمان بخس ، الشراء
الحقيقية ، بمعنى أن السيارة اشتروا يوسف من إخوته بثمان بخس .

والحق أن الرأي الأول هو الذي تطمئن إليه النفس ، لأنه هو الظاهر من
معنى الآية ، ولأنه بعيد عن التكلف الذي يرى واضحا في القولين الثاني والثالث

وقوله « والله عليم بما يعملون » أي : لا يخفى عليه شيء من أسرارهم . ومن
علمهم السوء في حق يوسف . حيث أنهم استرقوه وباعوه بثمان بخس ، وهو
لكريم بن الكريم بن الكريم . كما جاء في الحديث الشريف .

وقوله - سبحانه - « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » بيان لما فعله السيارة بيوسف بعد أن أسروه بهضاعة .

وقوله « شروه » هنا بمعنى باعوه .

والبخس : النقص ، يقال بخس فلان فلانا حقه ، إذا نقصه وعابه . وهو هنا بمعنى المبخوس .

و « دراهم » جمع درهم ، وهي بدل من « ثمن » .

و « معدودة » صفة لدراهم ، وهي كناية عن كونها قليلة ، لأن الشيء القليل يسهل عده ، بخلاف الشيء الكثير ، فإنه في الغالب يوزن وزناً .

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلوه عرضاً من عروض تجارتهم ، باعوه في الأسواق بثمن قليل قافه ، وهو عبارة عن دراهم معدودة . ذكر بعضهم أنها لا تزيد على عشرين درهم .

وقوله : « وكانوا فيه من الزاهدين » بيان لعدم حرصهم على بقائه معهم ، إذ أصل الزهد قلة الرغبة في الشيء . تقول زهدت في هذا الشيء ، إذا كنت كارهاً له غير مقبل عليه .

أي : وكان هؤلاء الذين باعوه من الزاهدين في بقائه معهم ، الراغبين في التخلص منه بأقل ثمن قبل أن يظهر من يطالبهم به .

قال الألوسي ما ملخصه : وزهدهم فيه سببه أنهم التقطوه من الجب . والمثلث للشيء متهاون به لا يبالي أن يبيعه بأي ثمن خوفاً من أن يعرض له مستحق ينزعه منه (١) .

وقوله - سبحانه - « وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » بيان لبعض مظاهر رعاية الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - .

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ١٨٣ .

والذى اشتراه ، قالوا إنه كان رئيس الشرطة لملك مصر فى ذلك الوقت ،
ولقبه القرآن بالعزىز كما سياتى فى قوله - تعالى - قالت امرأة العزيز الآن
حصحصر الحق

و د من مصر ، صفة لقوله ، الذى اشتراه . .

وامراته المراد بها زوجته ، واسمها كما قيل زليخا أورايل .
ومشواه من المشوى وهو مكان الإقامة والاستقرار . يقال ثوى فلان
بمكان كذا ، إذا أطل الإقامة به . ومنه قوله - تعالى - وما كنت ثاوياً فى
أهل مدين ، أى مقبلاً معهم .

أى : وقال الرجل المصرى الذى اشترى يوسف لامراته ، اجعلى عمل
إقامته كريماً ، وأنزليه منزلاً حسناً مرضياً .

وهذا كناية عن وصيته لها بأكرامه على أبلغ وجه ، لأن من أكرم المحل
بتنظيفه وتهيته تهية حسنة فقد أكرم صاحبه .

قال صاحب الكشاف . قوله : « أكرمى مشواة ، أى : اجعلنى منزله
ومقامه عندنا كريماً : أى حسناً مرضياً بدليل قوله بعد ذلك « إنه ربى أحسن
مشواى » .

والمراد : تفقديه بالإحسان ، وتمديده بحسن الملمكة ، حتى تكون نفسه طيبة فى
صحبتنا ، ساكنة فى كنفنا . ويقال : للرجل كيف أبو مشواك وأم مشواك ؟
لمن ينزلة من رجل أو امرأة ، يراد : هل تطيب نفسك بثوائك عنده وهل
يراعى حق نزولك به ؟ واللام فى « لامراته » متعلق بقال (١)

وقوله : « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . . . » يبين لسبب أمره لها
بأكرام مشواه .

أى : عسى هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف شئوننا ،

أو تبتناه فيكون منا بمنزلة الولد ، فإنى أرى فيه علامات الرشد والنجابة ،
وأمارات الأدب وحسن الخلق .

قالوا وهذه الجملة ، أو فتخذه ولدا ، توحى بأنهما لم يكن عندهما أولاد .
والحكاف فى قوله - سبحانه - ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، فى محل
نصب ، على أنه نعت لمصدر محذوف ، والإشارة إلى ما تقدم من إنجائه من
إخوته ، وانتشاله من الجب ؛ ومحبة العزيز له . ، ومكنا ، من التمكين بمعنى
التشيت ، والمراد بالأرض : أرض مصر التى نزل فيها .

أى : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على رعايتنا له ، مكنا ليوسف فى
أرض مصر ، حتى صار أهلا للأمر والنهى فيها .

وقوله ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، علة لمعلل محذوف ، فكأنه قيل :
وفعلنا ذلك التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث ، بأن نهبه من صدق اليقين ،
واستنارة العقل ، ما يجعله يدرك معنى الكلام إدراكا سليما ، ويفسر الروى
تفسيرا صحيحا صادقا .

وقوله ، واقع غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، تذييل
قصد به بيان قدرة الله - تعالى - ، ونفاذ مشيئته .

فأمر الله هنا : هو ما قدره وأراده .

أى : واقع - تعالى - متمم ما قدره وأراده ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا
ينازعه منازع ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم . فيما يأتون
وينرون من أقوال وأفعال .

والتعبير بقوله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، احتراسا لإنصاف
ومدح القلة من الناس الذين يعطيهم الله - تعالى - من فضله ما يجعلهم لا يندرجون
فى الكثرة التى لا تعلم ، بل هو - سبحانه - يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون
مالا يعلمه غيرهم .

ثم بين - سبحانه - مظهر آخر من مظاهر إنعامه على يوسف فقال : ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين .

والأشد : قوة الإنسان ، وبلوغه النهاية في ذلك ، مأخوذ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع . يقال : شد النهار إذا ارتفع .

يرى بعضهم أنه مفرد جاء بصيغة الجمع . ويرى آخرون أنه جمع لا واحد له من لفظه وقيل هو جمع شدة كأنعم ونعمة .

والمعنى : وحين بلغ يوسف - عليه السلام - منتهى شدة وقوته ، وهي السن التي كان فيها - على ما قيل - ما بين الثلاثين والأربعين .
« آتيناه ، أي : أعطيناه بفضلائنا وإحساننا .

« حكما ، أي حكمة : وهي الإصابة في القول والعمل أو هي النبوة .
« وعلمًا ، أي فقها في الدين ، وفهما سليما لتفسير الرؤى ، وإدراكا واسعا لشئون الدين والدنيا .

وقوله « وكذلك نجزي المحسنين ، أي : ومثل ذلك الجزاء الحسن والعطاء الكريم ، نعطي ونجازي المحسنين ، الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - .
به . فكل من أحسن في أقواله وأعماله أحسن الله - تعالى - جزاءه .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتحدثنا عن مرحلة من أدق المراحل وأخطرها ، في حياة يوسف - عليه السلام - وهي مرحلة التعرض للفتن والمؤامرات بعد أن بلغ أشده ، وآتاه الله - تعالى - حكما وعلمًا ، وقد واجه يوسف - عليه السلام - هذه الفتن بقلب سليم ، وخلق قويم ، فنجاه الله - تعالى - منها .

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي بأسلوبها البليغ ما فعلته معه امرأة العزيز من ترغيب وترهيب ، وإغراء وتهديد . . . فتقم .

« وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربّي أحسن مشواي إنه لا يفلح الظالمون (٢٣) ولقد هممت به ولم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين (٢٤) واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ، إلا أن يسجن أو عذاب أليم (٢٥) قال هي راودتني من نفسي ، وشهد شاهد من أهلها ، إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (٢٧) فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم (٢٨) يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين (٢٩) .

وقوله - سبحانه - « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، رجوع إلى شرح ماجرى ليوسف في منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام مشواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين ، تخالف العين التي نظر بها إليه زوجها .

والمرادة - كما يقول صاحب الكشف - مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى : فعلت معه ما يفعله الخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التحايل لمواقفته [ياها] (١) .

والتعبير عن حالها معه بالمرادة المقتضية لتكرار المحاولة ، للإشعار

بأنها كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والنحائل على ما تشتميه منه بشق الوسائل والحيل . . . وكان منه - عليه السلام - الإباء والامتناع عما تريده خوفاً من الله - تعالى -

وقال - سبحانه - « التي في بيتها ، دون ذكر لاسمها ، سقرا لها ، وابتعادا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامي الذي ألزمه القرآن في تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسي أتباعه بهذا اللون من الأدب في التعبير .

والمراد ببيتها : بيت سكنها ، والإخبار عن المرادة بأنها كانت في بيتها ، أدعى لإظهار كمال نزاهته - عليه السلام - فإن كونه في بيتها يغري بالاستجابة لها ، ومع ذلك فقد أعرض عنها . ولم يطاوعها في مرادها . .

وعدى فعل المرادة بعن ، لتضمنه معنى المخادعة .

قال بعض العلماء : و « عن ، هنا للمجاوزة ، أى : راودته بمباعدة له عن نفسه ، أى : بأن يجعل نفسه لها . والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن الكريم ، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة . قاله ابن عطية ، أى : فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد ، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه ، (١) .

وقوله « وغلقت الأبواب ، أى : أبواب بيت سكنها الذي قبيت فيه بابا فبابا ، قيل كانت الأبواب مبيعة .

والمراد أنها أغلقت جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذي راودته فيه لإغلاقاً شديداً محكماً ، كما يشعر بذلك التضعيف في « غلقت ، زيادة في حمله على الاستجابة لها .

ثم أضافت إلى كل تلك المغريات أنها قالت له : هيت لك ، أى : هاأنذا سبيته لك فأسرع في الإقبال على . . .

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٢ ص ٢٥٠ للشيخ الفاضل بن عاشور .

وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية في الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت عن المألوف من بغات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة ...

و د هيت ، اسم فعل أمر بمعنى أقبل وأسرع ، فهي كلمة حنض وحث على الفعل ، أو اللام في ذلك ، لزيادة بيان المقصود بالخطاب ، كما في قولهم : سقيا لك وشكرا لك . وهي متعلقة بمحذوف فكأنها تقول : لإرادتي كائنة لك .

قال الجمل ما ملخصه : ورد في هذه الكلمة قراءات د هيت ، كليت و د هيت ، كقبيل ، و د هيت ، كحيث و د هت ، بكسر الهاء وضم التاء ، و د هت ، بكسر الهاء وفتح التاء .

ثم قال : فالقراءات السبعية خمسة ، وهذه كلها لغات في هذه الكلمة ، وهي في كلها اسم فعل بمعنى هلم أي أقبل وتعال^٢ .

وقوله — سبحانه — د قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ، بيان لما رد به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت في إثارتها كل حد .

و د معاذ ، مصدر أضيف إلى لفظ الجلالة ، وهو منصوب بفعل محذوف أي : قال يوسف في الرد عليها : أعوذ بالله معاذ مما تطالبينه مني ، وأعتصم به اعتصاما مما تحاولينه معي ، فإن ما تطالبينه وتلحين في طلبه يتنافى مع الدين والبر والروء والشرف . . ولا يفعله إلا من خبت منبته ، وساء طبعه ، وأظلم قلبه .
وقوله د إنه ربي أحسن مثواي ، تعليل لغفوره مما دعتة إليه ، واستعاذ بالله منه .

والضمير في د إنه ، يصح أن يعود إلى الله - تعالى - فيكون لفظ ربي بمعنى خالتي . والتقدير .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤٤٤ .

قال يوسف في الرد عليها : معاذ الله أن أفعل الفحشاء والمنكر ، بعد أن أكرمني الله - تعالى - بما أكرمني به من النجاة من الحب ، ومن تهيئة الأسباب التي جعلتني أعيش معززا مكرما ، وإذا كان - سبحانه - قد حباني كل هذه النعم فكيف ارتكب ما يغضبه ؟

وجوز بعضهم عودة الضمير في « إنه » إلى زوجها ، فيكون لفظ ربي بمعنى سيدي ومالكي ، والتقدير : معاذ الله أن أقابل من اشتراني بما له ، وأحسن منزلي ، وأمرك يا كرامي ، بالخيانة له في عرضه .

وفي هذه الجملة الكريمة تذكير لها بالطرف أسلوب بحقوق الله - تعالى - وبحقوق زوجها ، وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه من مواقعتها ، لأنه يؤدي إلى غضب الله وغضب زوجها عليها .

وجملة « إنه لا يفلح الظالمون » ، تعليل آخر لصدها عما تريده منه .
والفلاح : الظفر وإدراك المأمول :

أي : إن كل من ارتكب ما نهى الله - تعالى - عنه ، تكون عاقبته الخيبة والخسران وعدم الفلاح في الدنيا والآخرة ، فكيف تريدني أن أكون كذلك ؟ هذا ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعي الغواية الثلاث التي جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة في المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها « هيت لك بدواعي العفاف الثلاث التي رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة في قوله - كما حكى القرآن عنه - معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون » .

وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف - عليه السلام - في تلك المعركة العنيفة بين فداء العقل وفداء الشهوة ...

ولكن فداء العقل وفداء الشهوة الجامعة لم ينته عند هذا الحد ، بل نرى القرآن الكريم يحكي لنا بعد ذلك صداما آخر بينهما فيقول : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه »

وهذه الآية السكرية من الآيات التي خلط المفسرون فيها بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة .

وسنبين أولا الرأي الذي مختاره في تفسيرها ، ثم تتبعه بعد ذلك بغيره فنقول : اللهم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه ، تقول هممت على فعل هذا الشيء ، إذا أقبلت نفسك عليه دون أن تفعله .

وقال بعض العلماء : اللهم نوعان : هم ثابت معه وعزم ورضا ، وهو مذموم مؤاخذ به صاحبه . وهم بمعنى خاطر وحديث نفس ، من غير تصميم وهو غير مؤاخذ به صاحبه ؛ لأن خطور المناهى في الصدور ، وتصورها في الأذهان ، لا مؤاخذة بها مالم توجد في الأعيان .

روى الشيخان وأهل السنن عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن الله تجارز لأمي عما حدثت به أنفسها ، مالم تتكلم به ، أو تعمل به (١) .

وقد أجمع العلماء على أن هم امرأة العزيز بيوسف كان هما بمعصية ، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد ، بدليل المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها . هيت لك ، .

كما أجمعوا على أن يوسف - عليه السلام - لم يأت بفاحشة ، وأن همه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية ، من غير جزم وعزم وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف ، ولا يخل بمقام النبوة ، كالصائم يرى الماء البارد في اليوم الشديد الحرارة ، فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه ، فلا يؤاخذ بهذا الميل .

والمراد ببرهان ربه هو : ماغرسه الله - تعالى - في قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن هذا الفعل الذي دعت له امرأة العزيز قبيح ، ولا يليق به .
أي هو - كما يقول ابن جرير - وؤيته من آيات الله ما زجره عما كان هم به ..

والمعنى : «واقدهم به ، أى : ولقد قصدت امرأة العزيز الواقعة
رسف - عليه السلام - قصدا جازما ، بعد أن أغرقه بشقى الوسائل فلم
يستجب لها ...»

«وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، أى : ومال إلى مطاوعها بمقتضى
طبيعته البشرية ، وبمقتضى توفر كل الدواعى لهذا الميل
ولكن مشاهدته للأدلة على شناعة المعصية ، وخوفه لمقام ربه ، وعون
الله - تعالى - له على مقاومة شهوته كل ذلك حال بينه وبين تنفيذ هذا
لميل ، وصرفه عنه صرفا كليا ، وجعله يفرها ربا طالبا النجاة مما تريده منه
تلك المرأة .

هذا هو الرأى الذى نختاره فى تفسير هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه
من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين .
فن المفسرين القدامى الذين ذكروا هذا الرأى صاحب الكشف ، فقد
قال ماملخصه :

وقوله - تعالى - «واقدهم به ، معناه : ولقد همت بمخالطته ؛ وهم
بها ، أى : وهم بمخالطتها «لولا أن رأى برهان ربه ، جوابه محذوف تقديره :
لولا أن رأى برهان ربه لمخالطها ، فحذف لأن قوله وهم بها يدل عليه . كقولك :
هممت بقتله لولا أنى خفت الله معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته . فإن قلت :
كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية ؟

قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة
الشباب ، ميلا يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول
والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على
المسكفين بوجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى
هما لشدة ، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام
النصير على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدة ، ولو كان همه كهمها .

عن عزيمة لما مدحه الله بأه من عباده المخلصين، (١). ومن المفسرين المحدثين الذين ذكروا هذا الرأي الإمام الآلوسى، فقد قال ما ملخصه :

« قوله : ولقد همت به ، أى : بمخالطته . . والمعنى : أنها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزما جازما ، لا يلويها عنها صارف بعدما باثرت مبادئها
والتأكيد - باللام وقد - لدفع ما يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه .

« وهم بها ، أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية . . . ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدا اختياريا ، لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم انصافه به ، وإنما عبر عنه بالهمم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهه به . . . « لولا أن رأى برهان ربه ، أى محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا ، وسوء سبيله .
والمراد رؤيته له : كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين . . . » (٢) .

ومن المفسرين من يرى أن المزاد بهمها به : الهم بضربه نتيجة عصيانه لأمرها .
وأن المراد بهمها بها : الدفاع عن نفسه برد الاعتداء ، ولكنه
آثر الحرب .

وقد قرر هذا الرأي ودافع عنه وأنكر سواء صاحب المنار . فقد قال ما ملخصه :

« ولقد همت به ، أى : وتا الله ، لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه لأمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها . وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه فخرجت بذلك عن طبع أوثقها فى التمتع

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢١١ .

(٢) تفسير الآلوسى

نما جعلها تحاول البطش به بعد أن أذل كرامتها ، وهو انتقام مهبود من مثلها ، ومن دونها في كل زمان ومكان

وكاد يردصياها ويدفعه بمثله ، وهو قوله - تعالى - « وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه ، ما هو مصداق قوله - تعالى - « والله غالب على أمره ، وهو لما النبوة . . . ولما معجزتها . . . ولما مقدمتها من مقام الصديقية العليا ، وهي مراقبته لله - تعالى - ورؤيته ربه متجليا له ، ناظرا إليه ، » (١) .

وما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم منها بالبطش بيوسف ، وتفسير الهم منه برد الاعتداء الذي وقع عليه منها

أقول ما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم بذلك ، لا أرى دليلا عليه من الآية ، لا عن طريق الإشارة ، ولا عن طريق العبارة . . .

ولعل صاحب المنار - رحمه الله - أراد بهذا التفسير أن يبعد يوسف عليه السلام - عن أن يكون قد هم بها هم ميل بمقتضى الطبيعة البشرية ، ونحن لا نرى مقتضيا لهذا الإبعاد ، لأن خطور المناهى في الأذهان ، لا مؤاخذه عليها ، ادا امت لم يصاحبها عزم أو قصد - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل - .

هذا وهناك أقوال أخرى لبعض المفسرين في معنى الآية الكريمة ، رأينا ن نضرب عنها صفحا ، لأنه لا دليل عليها لا من العقل ولا من النقل ولا من لغة وإنما من الأوهام الإسرائيلية التي تتنافى كل التنافي مع أخلاق باد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - كذلك لنصرف عند السوء والفحشاء إنه من عبادنا مخلصين ، بيان لمظهر من من مظاهر رحمة الله - تعالى - به ، ورعايته له . والكاف : نعت لمصدر محذوف والإشارة بذلك إلى الإراماة المدلول

عليها بقوله « لولا أن رأى برهان ربه ، أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك .

والصرف : نقل الشيء من مكان إلى مكان ، والمراد به هنا : الحفظ من الوقوع فيما نهى الله عنه . أى : أريناه مثل هذه الإرامة ، أو ثبته تقيتاً مثل هذا التثبيت لنعمه ونحفظه ونصونه عن الوقوع فى السوء — أى فى المنكر والفجور والمكروه — والفحشاء — أى كل ما خش وقبح من الأفعال كالزنا ونحوه .

« إنه من عبادنا المخلصين » — بفتح اللام — أى : إنه من عبادنا الذين أخلصناهم اطاعتنا ، وعصمناهم من كل ما يفضينا .

وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو « المخلصون » — بكسر اللام — أى : إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم لنا .

والجمله الكريمة على القراءتين تعليل لحكمة صرفه — عليه السلام — عن السوء والفحشاء .

وقوله ... سبحانه — « واستبقا الباب ... » متصل بقوله — سبحانه — قبل ذلك ، « ولقد همت به ... » وقوله « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ... » اعتراض جى به بين المتعاطفين تقريراً لنزاهته .

وقوله « واستبقا ... » من الاستباق ، وهو افتعال من سبق ، بمعنى أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب .

ووجه تسايقهما : أن يوسف — عليه السلام — أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروباً من الفاحشة التى طلبتها منه . وهى أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .

وأفرد — سبحانه — الباب هنا ، وجمعه فيما تقدم . لأن المراد به هنا الباب الخارجى ، الذى يخلص منه يوسف إلى خارج الدار ، وهو منصوب هنا على نزع الخافض أى .

وحلة (وقدت قميصه من دبر) حالية ، والقدر : القطع والشق ، وأكثر استعماله في الشق والقطع الذي يكون طويلا ، ودو المراد هنا ، لأن الغالب أنها جازية من الحلف وهو يجري أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .

وقوله : (وألفيا سيدها لدى الباب) أى : وصادفا ووجدا زوجها عند الباب الذى تسابقا للوصول إليه .

قالوا : والتعبير عن الزوج بالسيد ، كان عادة من عادات القوم في ذلك الوقت ، فحبر عنه القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعها في التاريخ القديم .

وقال - سبحانه - وألفيا سيدها ، لأن ملك العزيز ليوسف - عليه السلام - لم يكن له مكاحل صبيحا ، فيوسف ليس رقيقا يباع ويشترى ، وإنما هو الكريم بن الكريم بن الكريم ، وبيع السيارة له ، إنما كان على سبيل التخلص منه بعد أن التقطوه من الجب .

وقوله - سبحانه - (قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن) وعذاب أليم) حكاية لما قالت لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهي سرع وراء يوسف .

أى قالت تلك المرأة لزوجها عندما فوجئت به لدى الباب : ليس من جزاء لمن أراد بأهلك - تعنى نفسها - سوءا ، أى ما يسوءك ويؤلمك ، إلا أن يسجن ، عقوبة له ، أو أن يعذب عذابا أليما عن طريق الضرب أو الجلد ، تتجاوز الحدود ، واعتدائه على أهلك .

وهذه الجملة الكريمة التى حكاها القرآن الكريم عنها ، تدل على أن تلك المرأة كانت فى نهاية المكر والدهاء والتحكم فى إرادة زوجها . . .

ورحم الله الألوسى فقد علق على قولها هذا الذى حكاها القرآن عنها بقوله
الملخصة :

(ولقد آتت - تلك المرأة - فى هذه الحالة التى يدهش فيها الفطن اللوذعى

- حيث شاهدها زوجها على تلك الحالة المريبة - بحيلة جمعت فيها غرضها ، وهما نبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر حالها ، واستئصال يوسف عن رأيه في استعصائه عليها ، وعدم طاعته لها ، بإلقاء الرعب في قلبه ...

ولم تصرح بالاسم ، بل أتت بلفظ عام «من أراد بأهلك سوءا ..» ، ثم وبلا الأمر ، ومبالغة في التخويف ، كأن ذلك قانون مطرد في حق كل من أراد بأهله سوءا .

وذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز ، إعظاما للخطب ...

ثم إن حبها الشديد ليوسف - عليه السلام - حملها على أن تبدأ بذكر السجن ، وتؤخر ذكر العذاب لأن المحب لا يسمي في إيلاام المحبوب ، لاسيما أن قولها «إلا أنت يسجن ..» قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين (١) .

والحق أن هذه الجملة التي حكها القرآن عنها ، تدل على اكتمال قدرتها على المكر والدهاء - كما سبق أن أشرنا - ومن مظاهر ذلك ، محاولتها لإيهام زوجها بأن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوؤه ، ولكن بدون تصريح بهذا العدواز - شأن العاشق مع معشوقه - حتى لا يسمي زوجها في التخلص منه ببيعه - مثلا - .

وفي الوقت نفسه لإيهام يوسف عن طريق مباشر ، بأن أمره بيدها لا بيد زوجها ، وأنها هي الأمرة الغادية ، فعليه أن يخضع لما تريده منه . وإلا فالسجن أو العذاب الأليم هو مصيره المحتوم .

وهنا نجد يوسف - عليه السلام - لا يجد مفرًا من الرد على هذا الاتهام الباطل ، فيقول : كما حكى القرآن عنه - : « قال هي راودتني عن نفسي » .

أى : قال يوسف دافعا عن نفسه : لى ما أردت بها سوءا كما تزعم ،
ولنما هى التى بالغت فى ترغيبى وإغرائى بارتكاب مالا يابق معها ..
ثم قال - تعالى - : « وشهد شاهد من أهلها ، إن كان قيصه قد من قبل
فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قيصه قد من دبر فكذبت وهو من
الصادقين ، » .

وهذا الشاهد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل ابن عم لها ..
قال صاحب المنار : ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد بن جبیر
والضحاك ، أنه كان صبيا فى المهد ، ويؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير والبيهقى
فى الأدلائل عن ابن عباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : - تسكلم فى
المهد أربعة وهم : صفار ابن ماشطة ابنة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب
جريح ، وعيسى ابن مريم ، » .

وابن جرير عن أبى هريرة قال : « عيسى ابن مريم ، وصاحب يوسف
وصاحب جريح تكلموا فى المهد ، وهذا موقوف ، والمر فوع ضعيف ، وقد
اختاره ابن جرير ، وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا تضعيف (١) .
وعلى أية حال فالذى يهمنى أن الله - تعالى - قد سخر فى تلك اللحظة الحرجة ،
من يدلى بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز .

وألحق الله - تعالى - هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها ، لتسكون
أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه .
وقد قال هذا الشاهد فى شهادته - كما حكى القرآن عنه - « إن كان قيصه
قد من قبل ، أى : من أمام ، فصدقت ، فى أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل
على أنها دافعت من الإمام وهو يريد الاعتداء عليها .

« وهو من الكاذبين ، فى قوله هى راودتنى عن نفسى » .

« وإن كان قميصه قد سن دبر ، أى من خلف » فكذبت ، فى دعواه على أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها ، فتعقبته حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف » وهو من الصادقين ، فى دعواه أنها راودته عن نفسه .

وسمى القرآن الكريم ذلك الحكم بينهما شهادة ، لأن قوله هذا يساعد على الوصول إلى الحق فى قضية التبس فيها الأمر على العزيز .

وقدم الشاهد فى شهادته الغرض الأول وهو - إن كان قميصه قد سن قبل - لأنه إن صح يقتضى صدقها ، وقد يكون هو حريضا على ذلك بمقتضى قرابته لها ، إلا أن الله - تعالى - أظهر ما هو الحق ، تكريما ليوسف - عليه السلام - أو يكون قد قدم ذلك باعتبارها مديدة ، ويوسف فتى ، فن باب التلياقة أن يذكر الغرض الأول رحمة بها .

وزيادة جملة « وهو من الكاذبين ، بعد » فصدقت ، وزيادة جملة « وهو من الصادقين » بعد (فكذبت) تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو الشأن فى إصدار الأحكام .

وقوله - سبحانه - : (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيد كن إن كيدكن عظيم ...) بيان لما قاله زوجها بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافا تاما .

أى : فلما رأى العزيز قميص يوسف قد قطع من الخلف ، وجه كلامه إلى زوجته معاتباً لإياها بقوله ، إن محاولتك لتهام يوسف بما هو برىء منه ، هو نوع من (كيد كن) ومكر كن وحيلا كن (إن كيدكن عظيم) فى باب ، لأن كثير من الرجال لا يفتنون إلى مراميه .

وهكذا واجه ذلك الرجل خيانة زوجته له بهذا الأسلوب الناعم الهدىء ،
(٥ - سورة يوسف)

بأن نسب كيدها ومكرها لا إليها وحدها بل الجنس كله (لأنه من كيدكن ٠٠) ثم وجه كلامه إلى يوسف فقال له يوسف أعرض عن هذا أى: يا يوسف أعرض عن هذا الأمر الذى دار بينك وبينها فاكتمه . ولا تتحدث به خوفاً من الفضيحة ، وحفاظاً على كرامتى وكرامتها .

وقوله : واستغفرى لذنبك إنا كنت من الخاطئين ، خطاب منه لزوجته التى ثبتت عليها الجريمة ثبوتاً تاماً .

أى : واستغفرى الله من ذنبك الذى وقع منك ، بإساءتك فعل السوء مع يوسف ، ثم اتهمك له بما هو برىء منه .

وجملة : إنا كنت من الخاطئين ، تعليل لطلب الاستغفار . أى توبى إلى الله عما حدث منك ، لأن ما حدث منك مع يوسف - ملك من جملة القوم المتعمدين - لا يرتكب الذنوب وجعلها من جملة الخاطئين للتخفيف عليها فى المؤاخذه .

وهكذا نجد هذا الرجل - صاحب المنصب الكبير - يعالج الجريمة التى تثور لها الدماء فى العروق ، وتستلزم حسماً وحزماً فى الأحكام ، بهذا الأسلوب الهادئ البارد ، شأن المترفين فى كل زمان ومكان ، الذين تهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها ، وأشكالها دون جواهرها ، فهو يلوم امرأته لوماً خفيفاً يشبه المدح ، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر ، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة . . . ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هى عليه من بقاء يوسف معها فى بيتها ، وبد أن كان منها معه ما يستلزم عدم اجتماعهما هذا . ومن العبر والعظات الأحكام التى نأخذها من هذه الآيات السكرية :

١ - أن اختلاط الرجال بالنساء . كثيراً ما يؤدي إلى الوقوع فى الفاحشة وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل أمر طبيعى ، وما بالذات لا يتغير .

ووجود يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز تحت سقف واحد فى

من كانت هي فيها مكتملة الأنوثة ، وكان هو فيها فتى شابا جميلا أدى إلى فتنها به ، وإلى أن تقول له في نهاية الأمر بعد إغراءات شتى له منها : « هيت لك ، . »

ولا شك أن من الأسباب الأساسية التي جعلتها تقول هذا القول العجيب وجودهما لفترة طويلة تحت سقف واحد .

لذا حرم الإسلام تحريما قاطعا الخلوة بالأجنبية ، سدا لباب الوقوع في الفتن ، ومنعا من تهمة الوسائل للوقوع في الفاحشة .

ومن الأحاديث التي وردت في ذلك ما رواه الشيخان عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار ، أفرأيت الحمى يا رسول الله ؟ قال : الحمى الموت (١) . وانحو هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه .

وسئلت امرأة أنجرفت عن طريق العفاف ، لما ذا كان منك ذلك فقالت : قرب الوساد ، وطول السواد (٢) .

أى : حملنى على ذلك قربى ممن أحبب . وكثرة مجادثتى له ١١

٢ - أن هم الإنسان بالفعل ، ثم رجوعه عنه قبل الدخول في مرحلة التصميم والتنفيذ ، لا هوأخذة فيه .

قال القرطبي ما ملخصه : اللهم الذى هم به يوسف ، من نوع ما يخطر فى

(١) من كتاب رياض الصالحين ، ص ٦٢١ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٢) الوساد معروف وهو ما يتوسد به الإنسان عند نومه . والسواد -

بكسر السين مصدر ساوده إذا أسر إليه بالحديث .

قلوا : وهذه الكلمة كانت لابنة الخوص ، اعتذرت بها عن نفسها بعد أن

فنت فقيل لها لما ذا هذا السلوك وأنت سيدة قومك ؟ فقالت هذه الكلمة التى

ذهبت مثلا راجع تفسير المغار > ١٢ ص ٢٧٨ .

النفس ، ولا يثبت في الصدر ، وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ،
إذ لا قدرة للمكلف على دفعه ..

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - « قالت الملائكة يا ربنا ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو
أبصر به - فقال : ارقبوه فإن عملها فاكذبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكذبوها
له حسنة ، إنما تركها من جرائى - لئى من أجلى - .

وفي الصحيح : إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو
تسكلم به ، (١) .

٣ - أن من الواجب على المؤمن إذا ما دعى إلى معصية أن يستعين بالله
من ذلك ، وأن يذكر الداعى له بضررها ، وبسوء عاقبة المرتكب لها
كما قال يوسف - عليه السلام - « معاذ الله . إنه ربى أحسن مشاوى
لأنه لا يفتح الظالمون ، .

٤ - أن يوسف - عليه السلام - قد خرج من هذه المجنزة مشهودا له بالبراءة
وتقاء العرض ، من الله - تعالى - ، ومن خلقه الذين سخرهم لهذه الشهادة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وأعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة ،
يوسف - عليه السلام - وتلك المرأة وزوجها ، ورب العالمين والكل شهد
ببراءة يوسف عن المعصية ، أما يوسف - عليه السلام - فقد قال « هى راودتنى
عن نفسى ، وقال : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ،

وأما امرأة العزيز فقد قالت : « أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ..
وأما زوجها فقد قال « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ،

وأما شهادة رب العالمين ببراءته في قوله - تعالى - ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، فإنه من عبادنا المخلصين .

فقد شهد الله - تعالى - على طهارته في هذه الآية أربع مرات ، أولها :
« لنصرف عنه السوء ، وثانيها ، والفحشاء ، وثالثها ، إنه من عبادنا ، ورابعها
« المخلصين » (١) .

هـ - أن موقف العزيز من امرأته كان موقفاً ضعيفاً متراجحاً ... وهذا
للموقف هو الذي جعل تلك المرأة المتحكمة في زمام زوجها ، تقول بعد ذلك
بكل تهيج وتكشّف واستهتار : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » ، ولئن لم
يفعل ما أمره ليسجنن ، وليكونا من الصاغرين .

٦ - أن القرآن الكريم قد صور تلك المحنة في حياة يوسف وامرأة
العزيز ، تصويراً واقعياً صادقاً ، ولكن بأسلوب حكيم ، بعيد عما يחדش الحياء
أو يجرح الشعور .

قال بعض العلماء : والذي خطر لي أن قوله - تعالى - « ولقد همت به وهم
بها لولا أن رأى برهان ربه » : هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما
أبى يوسف في أول الأمن واستعصم ، وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس
البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة ،
ولكن السياق المرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتفارقة
المتغلبة ، لأنه المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق
أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة ، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك
فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الإمام
بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو الغنيظ جميعاً ... (٢)

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ١١٦ .

(٢) من تفسير « في ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب ج ١٢ ص ١٩٨١

طبعة دار الشروق .

ثم حكى السورة للكريمة بعد ذلك ما قالته بعض النساء : بعد أن شاع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وما فعلته معهن من أفعال تدل على شدة مكرها ودهائها ، وما قاله يوسف — عليه السلام — بعد أن سمع ما سمع من تهديدهن وإغرائهن ... قال - تعالى - :

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتِ اخْرِجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَّمْ يَنْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجِنَنَّ وَيَكُونَنَّ مِنَ الْمُصَّاعِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبُّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْهُنَّ يَصْبُ إِلَيْهِنَّ فَأَكْزُرُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) » .

قوله - سبحانه - « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ... » حكاية لما تناقلته الألسنة عن امرأة العزيز ، فقد جرت العادة بين النساء ، أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور في مجالسهن ، ولا يكتمنها ، خصوصاً إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة المرموقة ... كامرأة العزيز . والنسوة : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومفرده من حيث المعنى : امرأة ،

والمراد بالمدينة : مدينة مصر التي كان يعيش فيها العزيز وزوجته ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للنسوة .

أى : وقال نسوة من نساء مدينة مصر، على سبيل النقد والتشهير والتعجب .
إن امرأة العزيز ، صاحبة المسكاة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، بلغ بها الحال في
انقيادها لخواها ، وفي خروجها عن طريق العفة أنها تراود فتاها عن
نفسه ، أى : تطلب منه موافقتها ، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل .

ولم يبين لنا القرآن الكريم ، عدد هؤلاء النسوة ، ولا صفاتهن ، لأنه لا يتعلق
بذلك غرض نافع ، ولأن الذى يهدف إليه القرآن الكريم هو بيان أن ما حدث
بين يوسف وامرأة العزيز ، قد شاع أمره بين عدد من النساء ، في مدينة كبيرة
كمصر وفي وصفها بأنها د امرأة العزيز ، زيادة في التشهير بها ، فقد جرت العادة
بين الناس ، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث ، يكون أكثر
انتشاراً ، بينهم ، وأشد في النقد وانتجريح .

والتعبير بالمضارع في قوله - سبحانه - « تراود ، يشعر بأنها كانت مستمرة
على ذلك ، دون أن يمنعها منه افتضاح أمرها ، وقول زوجها لها ، واستغفري
لذنبك إنك كنت من الخاطئين . »

والمراد بفتاها يوسف - عليه السلام - . ووصفته بذلك لأنه كان في
خدمتها ، والمبالغة في رميها بسوء السلوك ، حيث بلغ بها الحال في احتقار
نفسها ، أن تكون مراودة لشخص هو خادم لها . . .

وجملة « قد شغفها حباً » ، بيان لحالها معه ، وهى في محل نصب حال من فاعل
تراود أو من مفعوله والمقصود بها تكرير لومها ، وتأكيده انقيادها لشهواتها .
وشغف مأخوذ من الشغاف - بكسر الشين - وهو غلاف القلب ، أو
سويداوة أو حجابها . يقال شغف الهوى قلب فلان شغفاً أى بلغ شغافه .

والمراد أن حبها إياه قد شق شغاف قلبها ، وتمكن منه تمكناً لا مزيد عليه
ود حباً ، تمييز محول عن الفاعل . والأصل : شغفها حباً إياه .

وجملة : إنا لنراها في ضلال مبين ، مقرر لمضمون ما قبلها من لوم امرأة العزيز ، وتحقير سلوكها . والمراد بالضلال : مخالفة طريق الصواب .

أى : إنا لنرى هذه المرأة بعين بصيرتنا ، وصادق علمنا ، فى خطأ عظيم واضح بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء ؛ لأنها — وهى المرأة المرموقة وزوجة الرجل الكبير — تراود خادمها عن نفسه .

والتعبير : إنا لنراها ... للإشعار بأن حكمهن عليها بالضلال ليس عن جهل ، وإنما هو عن علم وروية ، مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا الضلال المبين الصادر عنها .

قال صاحب المنار : وهن ما قلن هذا إنكارا للمنكر ، وكرها للرديلة ، ولا حبا فى المعروف ، ونصراً للفضيلة . وإنما قلن مكرًا وحيلة ، ليصل إليها قولهن فيحملها على دعوتهن . وإرادتهن بأعين أبصارهن ، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن . فيعذرنها فيما عذلته عليه . فهو مكر لارأى ، (١)

وهنا تحكى السورة الكريمة كيف قابلت تلك المرأة الداهية الجريئة ، مكر بنات جنسها وطبقاتها بمكر أشد من مكرهن بها فقال — تعالى — :
« فلما سمعت بمكرهن ، أى : باغتيابهن لها . وسوء مقالتهن فيها ، ومسمى ذلك مكرًا لشبهه به فى الإخفاء والخداع .

أو قصدن بما قلته — كما سبق أن أشرنا — لإثارتها ، لكي تطلعهن على فتاها الذى راودته عن نفسه . ليعرفن السرفى هذه المرادة ، وعلى هذا يكون المكر على حقيقته . ومثل هذا المكر ليس غريباً على النساء فى مثل هذه الأحوال .

وقوله : أرسلت اليهن . ألخ ، بيان لما فعلته معهن :

أى : أرسلت إلى النسوة اللاتى وصفنهن بأنها فى ضلال مبین ، وودعنهن إلى الحضور إليها فى دارها لتناول الطعام .

- وأعدت لهن متكأ ، أى : وهيات لهن فى مجلس طعامها ، ما بتكن عليه من الوسائد والنمازق وما يشبه ذلك .

فالتكأ : إسم مفعول من الإنكاء ، وهو الميل إلى أحد الجانبين فى الجلوس كما جرت بذلك عادة المترفين عند تناول الطعام ، وعندما يريدون إطالة المكث مع اقتصاب قليل فى النصف الأعلى من الجسم والاستراحة بعد الأكل .

أخرج ابن شيبه عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم - أنه نهى أن يأكل الرجل بشماله ، وأن يأكل متكأ ، (١) وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، أى : وأعطت كل واحدة من هؤلاء النسوة سكيناً ليقطعن به ما يأكلن من لحم وفاكهة

د ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الحضارة المادية فى مصر فى ذلك الوقت كانت قد بلغت شأواً بعيداً ، وأن الترف فى القصور كان عظيماً ، فإن استعمال السكاكين فى الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته فى تصوير الترف والحضارة المادية ، (٢) .

وهنا نجد المرأة الجريئة الماكرة ، تقول ليوسف - عليه السلام - كما حكى القرآن عنها : « أخرج عليهن » : أى أبرزهن ، وأدخل عليهن ، وهن على تلك الحالة من الأكل والانكاء وتقطيع ما يحتاج إلى تقطيع الطعام

وهى ترمى من وراء خروجه عليهن إلى إطلاعهن عليه حتى يعذرنها فى حبها له وقد كان لهذه المفاجأة من يوسف لهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ، أثرها الشديد فى نفوسهن ، وهذا ما حكاه القرآن الكريم فى قوله : « فلما

(١) تفسير الألوسى ج ١٢ ص ٢٠٤

(٢) تفسير د فى ظلال القرآن ، ج ١٢ ص ١٩٨٤

رأيناه أكبره وقطعن أيديهن وقان حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك
كريم . .

والجملة السكريمة معطوفة على كلام محذوف دل عليه السياق ، والتقدير :
قالت امرأة العزيز ليوسف أخرج عليهن ، فخرج عليهن وهن على تلك الحالة
فلما رأينه أكبرنه ، أى : أعظمته ، ودهشن لهيئته ، وجمال طلعتة وحسن شمائله

« وقطعن أيديهن ، أى : جرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التى فى أيديهن .
دون أن يشعن بذلك ، أشدة دهشتن المفاجئة هيئة يوسف ... »

« وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، وحاش فعل ماض ، واللام فى « الله »
للتعليل ، المراد بهذه الجملة السكريمة التعبير عن عجب صنع الله فى خلقه أى :
وقلن عندما فوجئن بخروج يوسف عليهن : نزه الله — تعالى — تزيها كبيراً
عن صفات العجز ، وتتعجب تعجباً شديداً من قدرته — سبحانه — على خلق
هذا الجمال البديع ، وما هذا الذى نراه أمامنا بشراً كسائر البشر ، لتفوقه فى
الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين . تمثل فى هذه الصورة
البديعة التى تخلب الأبواب .

وومضوه بذلك بناء على ما ركز فى الطباع من تشبيه ما هو مفرط فى
الجمال والنفقة بالملك ، وتشبيه ما هو شديد القبح والسوء بالشیطان .

وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها ، اللائى عزلنها فى
حبها ليوسف ، فقالت لهن على سبيل التفاخر والشففى ، وبدون استحياء أو
تلميح : فذاكن الذى لمتننى فيه ،

والفاء هنا فصيحة ، والخطاب للنسوة اللائى قطعن أيديهن دهشاً من جمال
يوسف ، والإشارة إليه — عليه السلام —

أى : قالت لهن على سبيل النشفى والتباهى والاعتذار عما صدر منها معهن :
إن كان الأمر كما قلتن ، فذاك هو الملك الكريم الذى لمتننى فى حبى له ،

وقلتن ما قلتن في شأنى لافتتانى به ، فالآن بعد رؤيتكن له ، وتقطيع أيديكن
ذهولا لطلعتيه ، قد علمتن أنى معذورة فيما حدث منى معه ...

ثم جاهرت أمامهن بأنها أغرتيه بموافقتها فلم يستجيب فقالت : « ولقد
راودته عن نفسه فاستعصم ... »

أى : ووالله لقد حاولت معه بشتى المغريات أن يطوع نفسه لى ، فأبى
وامتنع امتناعا بليغا ، وتحفظ تحفظا شديدا .

والتعبير بقوله « فاستعصم » للمبالغة فى عصمته لنفسه من الزلل ، فالسجين
والذاء للمبالغة ، وهو من العصمة بمعنى المنع . يقال : عصمه الطعام أى : منعه
من الجوع ، وعصم القرية أى : شدها بالعصام ليمنع نزول الماء منها .

وفى الآية — كما يقول الآلوسى — دليل على أنه — عليه السلام — لم
يصدر منه ما سود به القصاص وجوه الطروس (١) — أى الأوراق :

ثم قالت أمامهن بعد ذلك فى تبجح واستهتار وتهديد : « ولئن لم يفعل
ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ،

أى : والله لقد راودته عن نفسه فاستعصم ، والله لئن لم يفعل ما أمره
به ، — وأنا سيدته الأمرة الناهية لا غيرى — ليسجنن عقوبة له ، وليكونا من
الصاغرين ، أى : من الأذلاء المهانين المقهورين ، من الصغار . يقال صغر
فلان — كفرح — يصغر صغرا وصغارا إذا ذل وهان .

قلوا : وأكدت السجن بالنون الثقيلة وبالقسم لتحقيقه فى نظرها ، وأكدت
الصغار بالنون الخفيفة لأنه غير متحقق فيه ، ولأنه من توابع السجن ولوازمه .

وفى هذا التهديد ما فيه من الدلالة على ثقته من سلطانها على زوجها ، وأنه
لا يستطيع أن يعصى لها أمرا ، مع أنه عزيز مصر ...
ويتراعى على مسامع يوسف — عليه السلام — هذا التهديد السافر . . فيلجأ

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٢٠٩

إلى ربه مستجيرا به . ومحتميا بحماه . ويقول . رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه

أى : قال يوسف - عليه السلام - متضرعا إلى ربه - تعالى - : يا رب السجن الذى هددتنى به تلك المرأة ومن معها ، أحب إلى ؛ وآثر عندي مما يدعونني إليه من ارتكاب الفواحش .

وقال أحب إلى مما يدعونني إليه ، ولم يقل مما تدعونني إليه امرأة العزيز ، لأنهم جميعا كن مشتركات فى دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أم غير مباشر ، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه . وبعد أن سمعن ما قالته فى شأنه ربة الدار ...

قال الآلوسى : وإسناد الدعوة إليهن ، لأنهن خوفنه من مخالفتها ، وزين له مطاوعتها .

فقد روى أنهن قلن له أطع مولاناك ، واقض حاجتنا ، لتأمن عقوبتها .. وروى أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة به لنصيحته ، فلما خلت به دعتة إلى نفسها ... :

وقوله : وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ، اعتراف منه - عليه السلام - بضعفه البشرى الذى لا قدرة له على الصمود أمام الإغراء ، إذا لم يكن معه عون الله - تعالى - وعنايته ورعايته .

و : أصب ، من الصبوة وهى الميل إلى الهوى ، يقال : صبأ فلان يصبو صبوا وصبوة ، إذا مال إلى شهوات نفسه واتبع طريق الشر ، ومنه ريح الصبا ، وهى التى تميل إليها النفوس لطيب نسيمها واعتدال هوائها .

والمعنى : ولما تدفع عني يا إلهي كيد هؤلاء النسوة ، ومحاولاتهن لإيقاعى فى حبائلهن ، أمل إليهن . وأطاعهن على ما يردنه منى ، وأكن بذلك من الجاهلين السفهاء الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم ، فيقعون فى القبائح والمنكرات .

وقوله — سبحانه — « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه السد
العليم » بيان لتقبل الله - تعالى - لدعائه بفضله ورحمته .

أى : فاستجاب الله - تعالى - ليوسف دعاءه وضراعه ، فدفع عنه بله
وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن ، بأن أدخل اليأس فى نفوسهن من الط
فى استجابته لهن ، وبأن زاده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته ، فلم ينخد
بمكرهن ، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن .

« إنه » سبحانه « هو السميع » ، لدعاء الداعين ، والمجيب لضراعه المخلص
« العليم » بأحوال القلوب ، وبما تنطوى عليه من خير أو شر :

وقال - سبحانه - « فاستجاب .. » بفاء التعقيب للإشارة إلى أنه - سبحانه -
بفضله وكرمه ، قد أجاب دعاء عبده يوسف - عليه السلام - بدون تأخير أو إبطاء .
قال الإمام ابن كثير : وقوله - سبحانه - : « فاستجاب له ربه فصرف »
كيدهن وذلك لأن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة
وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غا
مقامات الكمال ، أنه مع شبابه وجماله وكاله ، تدعوه سيده ، وهى امر
عزيز مصر ، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ، فيمتنع من ذل
ويختار السجن خوفا من الله ، ورجاء فى ثوابه .

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال سب
يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله
ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه
ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر
الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني
أخاف الله ، (١) .

ثم سأقت لنا السورة الكريمة بعد ذلك قصة دخول يوسف - عليه السلام - السجن ، مع ثبوت برامته ، مما نسب إليه ، وكيف أنه وهو في السجن لم ينس الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة ماسواه ، وكيف أنه أقام الأدلة على صحة ما بدعو إليه ، وفسر لصاحبيه في السجن رؤياهما تفسيراً صادقاً صحيحاً ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:

« ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَّهٗ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُجِىءُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِي إِلَّا نَبَأُكُمْ مَا بُتِّأْوِيلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ إِذْ قُوتُ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً لَمْ يَمَيُّضُوا أَنَّكُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَْا فَبَسَّطِي رُبَّهُ خَمْرًا ، وَأَمَا الْآخَرُ فَبِصَابٍ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ

لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ، اذْكَرْتَنِي عِنْدَ رَبِّكَ ، فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ ، فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) .

وقوله - سبحانه - : ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى
حين ، بيان لما فعله العزيز وحاشيته مع يوسف - عليه السلام - بعد أن
ثبتت برأاه .

وبدا هنا من البداء - بالفتح - وهو - كما يقول الإمام الرازي - عبارة
تغير الرأي عما كان عليه في السابق .

والضمير في : لهم ، يعود إلى العزيز وأهل مشورته .

والمرأة بالآيات : الحижج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته
كانشقاق قميصه من دبر ، وقول امرأة العزيز : ولقد راودته عن نفسه فاستعصم .
وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهي المكاذبة ...

والحين ، الزمن غير المحدد بمدة معينة .

والمعنى : ثم ظهر للعزيز وحاشيته ، من بعد ما رأوا وعانوا البراه
المبعدة الدالة على صديق يوسف - عليه السلام - وطهارة عرضه ...

بدا لهم بعد كل ذلك أن يغيروا رأيهم في شأنه ، وأن يسجنوه في المسك
المعد لذلك ، إلى مدة غير معلومة من الزمان .

واللام في قوله : ليسجننه ، جواب أنفسهم مخدوف على تقدير القول :
ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين ، والله ليسجننه حتى حين .

ولاشك أن الأمر بسجن يوسف - عليه السلام - كان بتأثير من امر
العزيز ، فتنفذوا تهديداتها بعد أن صمم يوسف - عليه السلام - على عصي
فيما تدعوه إليه ، فقد سبق أن حكى القرآن عنها قولها : ولئن لم يفعل ما آ

ليسجن وليكون من الصغارين ، (١) .

ولاشك - أيضا - أن هذا القرار بسجن يوسف يدل على أن امرأة عزيز كانت مالكة لقياد زوجها صاحب المنصب الكبير ، فهي تقود ، حيث تريد كما يقود الرجل دابته ...

ولقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشف فقال مملخصه : قوله ثم بدالهم من بعد ما رآوا الآيات ...

وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستئصال المرأة لزوجها ، وقتلها منه في الذروة والغارب ، وكان مطواعة لها ، وجلا ذلولا زمامه في يدها ، حتى أنساه ذلك ماعين من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعده ، وذلك لما أيسر من طاعته لها ، وطمعت في أن يذلل السجين ويسخره لها .

ثم بين - سبحانه - جانباً من أحواله بعد أن دخل السجن فقال : ودخل معه السجن فتيان ...

والفتيان : ثمانية فتي ، وهو من جاوز الحلم ودخل في سن الشباب . قالوا : وهذان الفتيان كان أحدهما : خباز الملك وصاحب طعامه . وكان الثاني : ساقيا للملك ، وصاحب شرابه .

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ١٣٣ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٣١٩ . وقوله وقتلها منه في الذروة والغارب ، مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره ، حتى يتمكن من إخضاعه له ، ومن انقياده لأمره والذروة - بالكسر والضم - أعلى الشيء والمراد به هنا أعلى سنام البعير . والغارب المسكان الذي العنق والسنام منه . والمراد أن صاحب الجمل يخفي الخطام ويأخذ في التجايل على الجمل حتى يتمكن منه فيضع فيه الخطام ويقرده به .

وقد أدخلهما الملك السجن غضبا عليهما ، لأنهما اتهما بخيانته .

والجلمة الكريمة عطف على كلام محذوف يفهم من السياق ، والتقدير : بعد أن بدا للعزیز وحاشيته سجن يوسف ، نفذوا ما بدا لهم فسجنوه ، ودخل معه في السجن فتيان من خدم الملك ، قال أحدهما ، وهو ساقى الملك ايوسف - عليه السلام - .

« إني أراني أعصر خمرا ، أى : إني رأيت فيما يرى النائم ، أنى أعصر عنبا يصير خمرا ، سواء بما يؤول إليه .

« وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأى خبزا أكل الطير منه ، أى : وقال الثانى وهو خباز الملك ، إني رأيت فى المنام أنى أحمل فوق رأى سلالا بها خبز ، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأى .

والضمير المجرور فى قوله : نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ، يعود إلى المرتضى فى المنام أى : أخبرنا بتفسير ما رأيناه فى منامنا ، إنا نراك ونعتقدك من القوم الذين يحسنون تأويل الرؤى ، كما أننا فتوسم فيك الخير والصلاح ، لإحسانك إلى غيرك : من السجناء الذين أذت واحد منهم .

وقبل أن يبدأ يوسف - عليه السلام - فى تأويل رؤياهما ، أخذ يمد لذكره بأن يعرفهما بنفسه ، وبعقيدته ، ويدعوهما إلى عبادة الله وحده ، ويقيم لهما الأدلة على ذلك ...

وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين لعقيدتهم الغيورين على أنفسهم بين الناس ، إنهم يسوقون غيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبل عليهم ، ويستجيب لهم ...

وهذا ما كان من يوسف - عليه السلام - فقد بدأ فى رده عليهما بقوله : « قال لا يأتىكما طعام ترفقانه إلا نأتىكما بتأويله قبل أن يأتىكما ... »

أى : قال يوسف لرفيقه في السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما :
لاياتيكما - أيها الرفيقان - طعام ترزقانه في سجنكما ، في حال من الأحوال ،
إلا وأخبرتكما بما هيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما .

ولمّا قال لهما ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول ، فيستجيبا لدعوته لهما
إلى وحدانية الله بعد ذلك .

وقوله : ذاكما عما علمنى ربى ، نفى لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن عليه
ماخوذ عن الحكمة أو التنجيم أو غير ذلك مما لا يقره الدين .

أى : ذلك التفسير الصحيح للرؤيا ، والإخبار عن المغيبات ، كإخباركما
عن أحوال طعامكما قبل أن يصل إليكما ...

ذلك كله إنما هو العلم الذى علمنى إياه ربى وخالقى ومالك أمرى ، وليس
عن طريق الحكمة أو التنجيم كما يفعل غيرى .

وقوله : مما علمنى ربى ، فيه إشعار بأن ما أخبرهما به من مغيبات ، هو جزء
من علوم كثيرة علمها إياه ربه - عز وجل - فضلا منه - سبحانه - وكرما .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : لئن تركت ملّة قوم ، أى دين قوم ، لا يؤمنون
بالله ، أى لا يدينون بالعبودية لله - تعالى - وحده ، الذى خلقهم ورزقهم ،
ولمّا يدينون بالعبودية لآلهة أخرى لا تنفع ولا تنصر .

« وهم بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب » هم كفرون ، جاحدون
لما يجب الإيمان به .

وفى هذه الجملة السكرية تعريض بما كان عليه العزيز وقومه ، من إشراك
و كفر ولم يواجه الفتيان بأنهما على دين قومهما ، وإنما ساق كلامه على سبيل
العموم ، لئكى يزيد فى استمالتهما إليه ، وإقبالهما عليه

وهذا شأن الدعاة العقلاء ، يلتزمون فى دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة
الحسنة ، بدون إحراج أو تنفير .

ولما كان تركه لملة هؤلاء القوم ، يقتضى دخوله فى ملة قوم آخرين ، نراه
يصرح بالملة التى اتبعها فيقول : « واتبعت ملة آبائى ، الكرام المؤمنين
بوحداية الله وبالأخرة وما فيها من حساب وجزاء . إبراهيم وإسحاق ويعقوب » .

وسمى آباء جميعها ، لأن الأجداد آباء . وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب
ثم الأب ، ليكون إبراهيم هو أصل تلك الملة التى اتبعها ، ثم تلقاها عنه إسحاق ،
ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب - عليهم السلام - .

وفى هذه الجملة الكريمة ، بيان منه - عليه السلام - لرفيقه فى السجن ، بأنه
من سلسلة كريمة ، كلها أنبياء ، فحصل له بذلك الشرف الذى ليس بعده شرف
وقوله « ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ » ، تنزهه عن الشرك بأبلغ وجه .

أى : ما صح وما استقام لنا أن نشرك بالله - تعالى - أى شئ من الإشرار ،
فنحن أهل بيت النبوة الذين عصمهم الله - تعالى - عن ذلك .

ود من ، فى قوله « من شئ » ، لتأكيد النفي وتعميمه . أى ، ما كان لنا أهل
هذا البيت الكريم أن نشرك بالله شيئا من الإشرار ، قليلا ذلك الشئ أو كثيرا .
وقوله ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ... ، اعتراف منه - عليه
السلام - برعاية الله - تعالى - له ولآبائه .

واسم الإشارة . يعود إلى الإيمان بالله - تعالى - المدلول عليه بنفى الشرك .
أى : ذلك الإخلاص لله - تعالى - فى العبادة ، كائن من فضله - سبحانه -
علينا معاشر هذا البيت ، وعلى غيرنا من الناس ، الذين هداهم إلى الإيمان
الحق .

وقوله « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » ، إنصاف للقلّة الشاكرة
الله - تعالى - .

أى : ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله - على نعمه الجزيلة ، وآلائه
التي لا تحصى .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه في السجن بنفسه وبملائته وبأبائه ، شرع
يقيم لهم الأدلة على صحة عقيدته ، وعلى فساد عقيدتهما فقال - كما حكى القرآن
هنا - : يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، .

أى : يا صاحبي ورفيقي في السجن . أخبراني بربكما ، أعبادة عدد من
الأرباب المتفرقة في ذواتها وصفاتها ، خير ، أم ، عبادة الله ، - تعالى -
الواحد ، في ذاته وصفاته ، القهار ، لكل من غالبه أو نازعه ؟

وكرر نداءهما بالصحة ليجيب إليهما بهذه الصفة التي فيها إيناس للقلوب ،
وليسترعى انتباههما إلى ماسبقوله لهما .

قال صاحب المنار مالمخصه : وقوله « أرباب متفرقون خير ... » هذا
استفهام تقرير بعد تحبير ، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد ، وكان المصريون
المخاطبون به ، يعبدون كغيرهم من الأمم أربابا متفرقين في ذواتهم وفي صفاتهم
وفي الأعمال التي يسندونها إليهم بزعمهم ، فهو يقول لصاحبيه « أرباب متفرقون »
أى : عبيدون هذا شأنهم في التفرق والإنقسام ، خير ، أم ، لغيركم ، أم الله
الواحد القهار ... ، (١)

ولاشك أن الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان ، أن عبادة الله - تعالى -
الواحد القهار ، هي العبادة الصحيحة التي توافق الفطرة السليمة والعقول القويمة .
ثم انتقل يوسف - عليه السلام - إلى تفنيد العقائد الباطلة ، والأوهام
السكاذبة فقال : « ماتعبدون من دونه ، أى من دون الله - تعالى - المستحق للعبادة .
« إلا أسماء » أى إلا ألفاظا فارغة لا قيمة لها .

« سميتموها » آلهة بزعمكم ، أنتم وآباؤكم ، أما هي فليس لها من هذا
الإسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة ، ومرزوقة وليست
رازقة ، وزائلة وليست باقية ، وما كان كذلك لا يستحق أن يكون إلها .

ومفعول د سميتموها ، الثاني محذوف ، والتقدير سميتموها آلهة .

وقوله : وآبائكم ، لقطع عذرهم ، حتى لا يقولوا : إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن آباءكم كانوا أشد منك جهلا وضللا ، فلا يصح لكم أن تقتدوا بهم .

والمراد بالسلطان في قوله - تعالى - : ما أنزل الله بها من سلطان ، الحجة بالبرهان .

أى : ما أنزل الله - تعالى - بتسميتها آربابا - كما سميتموها بزعمكم - من برهان أو دليل يشعر بتسميتها بذلك ، وإنما أنتم الذين خلعتكم عليها هذه الأسماء . وقوله : إن الحكم إلا لله ، لإبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم .

أى : ما الحكم في شأن العقائد والعبادات والمعاملات وفي صحتها أو عدم صحتها إلا لله - تعالى - وحده ، لأنه الخالق لكل شيء ، والعليم بكل شيء .

وقوله : أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، إنتقال من الأدلة الدالة على وحدانيته - سبحانه - ، إلى الأمر بإخلاص العبادة له وحده .

أى : أمر - سبحانه - عباده أن لا يجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو بالقيم ورازقهم ، وهو يحيمهم ويميتهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : : ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ،

أى : ذلك الذى أمرناكم به من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، هو الدين القيم .

أى : الحق المستقيم الثابت ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، لا سبيلا الشهوات والمطامع على نفوسهم .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه ، وأقام لهما الأدلة على أن عبادة الله - تعالى - وحده هو الدين الحق ، دعاهما إلى الدخول فيه . . .

بعد كل ذلك شرع في تفسير رؤياهما ليزيدهما ثقة في قوله ، فقال : يا صاحبي السجن أما أحدكما ، وهو ساقى الملك ، فيخرج من السجن برئاً ويسقى ربه .
أى : سيده الملك ، خراً . .

« وأما الآخر ، وهو خباز الملك وصاحب طعامه ، فيصلب ، أى : فيقتل .
ثم يصلب ، فتأكل الطير من رأسه » بعد موته .

ولم يعين يوسف - عليه السلام - من هو الذى سيسقى ربه خراً ، ومن هو الذى سيصلب ، وإنما اكتفى بقوله « أما أحدكما ... » وأما الآخر ، تطلقاً معهما ، وتخرجاً من مواجهة صاحب المصير السيء بمصيره ، وإن كان فى تعبيره ما يشير إلى مصير كل منهما بطريق غير مباشر .

ثم أكد لهما الأمر واثقاً من صدق العلم الذى علمه الله لإياه ، فقال : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » .

والاستفتاء : مصدر استفتى إذا طلب الفتوى من غيره فى أمر خفى عليه ففهمه أى : تم التفسير الصحيح لرؤياكما اللتين سألتني عن قأويلهما .

ثم ختم يوسف - عليه السلام - حديثه مع صاحبيه فى السجن ، بأن أوصى الذى سينجو منهما بوصية حكاهما القرآن فى قوله : « وقال للذى ظن أنه ناج منهما ، اذ كرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين » .

أى : « وقال ، يوسف - عليه السلام - للفقى الذى اعتقد أنه سينجو منهما وهو ساقى الملك ، أيها الساقى بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك ، اذكر حقيقة حالى عنده ، وأنى سجين مظلوم » .

ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند الملك ، لم ينفذ الوصية ، لأن الشيطان أنساه ما قاله له يوسف ، فكانت النتيجة أن لبث يوسف - عليه السلام - فى السجن مظلوماً بضع سنين .

والبضع - بالكسر - من ثلاث إلى تسع ، وهو ما حود من البضع - بالفتح - بمعنى القطع والشق . يقال : بضعت الشيء أى : قطعته .

وقد اختلفوا فى المدة التى قضاه يوسف فى السجن على أقوال من أشهرها أنه لبث فيه سبع سنين .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير فى « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك ، ويكون المراد بربه أى : سيده ملك مصر .

وهناك من يرى أن الضمير فى قوله « فأنساه » يعود إلى يوسف - عليه السلام - وأن المراد بالرب هنا : الخالق - عز وجل - ، وعليه يكون المعنى . وقال يوسف - عليه السلام - للفتى الذى اعتقد نجاته وهو ساقى الملك ، اذكر مظمتى عند سيدك الملك عند ما تعود إليه ، واذكر له إحسانى لتفسير الرؤى

وقوله « فأنساه الشيطان ذكر ربه » أى : فأنسى الشيطان يوسف أن يذكر حاجته لله وحده ، ولا يذكرها للمساقى ليبلغها إلى الملك .

فمكافاة النتيجة أن لبث يوسف فى السجن بضع سنين بسبب هذا الاعتماد على المخلوق .

والذى يبدو لنا أن التفسير الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فآرسلون ... » يدل دلالة واضحة على أن الضمير فى قوله « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك ، وأن المراد بربه أى سيده . وقد علق الإمام الرازى على هذه الآية تعليقا يشهر بترجيحه للرأى الثانى فقال ماملخصه : واعلم أن الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا وإن كان جائزا لعامة الخلق ، إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظراهم عن الأسباب بالكلية ، ولا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب

ثم قال : والذي جربته من أول عمرى إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله ، صار ذلك سبباً إلى البلاء وإلى المحنة وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بلغت فيه السابعة والخمسين من عمرى .

ثم قال : واعلم أن الحق هو قول من قال أن الضمير فى قوله « فأنساه الشيطان ذكر ربه » راجع إلى يوسف .. والمعنى : أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه وخالفه (١)

ونحن مع احترامنا لرأى الفخر الرازى . إلا أننا نرى أن عودة الضمير فى قوله « فأنساه » إلى الساقى الذى ظن يوسف أنه هو الناجى من العقوبة ، أولى لما سبق أن ذكرناه .

قال ابن كثير قوله « اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه » أى : قال يوسف اذكر قصتى عند ربك وهو الملك ، فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك ، وكان نسيانه من جملة مكاييد الشيطان ... هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله « فأنساه » عائد على الناجى كما قال مجاهد ومحمد ابن إسحاق وغير واحد (٢)

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا بأسلوبها المشوق الحكيم جانباً من حياة يوسف - عليه السلام - فى السجن فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد كان بعد ذلك أن أراد الله - تعالى - فتح باب الفرج ليوسف - عليه السلام - ، وكان من أسباب ذلك أن رأى الملك فى منامه رؤيا أفرغته ، ولم يستطع أحد تأويلها تأويلاً صحيحاً سوى يوسف - عليه السلام - . استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول :

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ - ١٤٤

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١٦ طبعة دار الشعب وراجع تفسير المنار ج ١٢ ص ٣١٣

« وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ ،
وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ ، يَأْكُلُهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُؤْيَايَ
إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) » قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ
الْأَحْلَامِ بِمَا لَيْنَ (٤٤) » وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ، أَنَا أُنَبِّئُكُمْ
بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) » يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ ، وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ ، لَعَلِّي
أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) » قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ،
فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) » ثُمَّ يَأْتِي مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨)
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ (٤٩) » .

فقوله - سبحانه - « وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ
عِجَافٍ .. » شروع في حكاية الرؤيا التي رآها ملك مصر في ذلك الوقت ..

قال ابن كثير : هذه الرؤيا من ملك مصر . مما قدر الله - تعالى - أنها كانت
سببا لخروج يوسف -- عليه السلام -- من السجن معززا مكرما ، وذلك أن
الملك رأى هذه الرؤيا ، فهايته وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها ، فجمع
الكهنة وكبراء دولته وأمرائها ، وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ،
فلم يعرفوا ذلك ... (١) .

وقوله - عجاف ، جمع عجفاء والعجف - بفتح العين والجيم - ذهاب السمن ،
يقال هذا رجل أعجف وامرأة عجفاء . إذا ظهر ضعفهما وهزالهما ...

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢١٧

أى : وقال ملك مصر فى ذلك الوقت لكبار رجال مملكته ، إننى رأيت فيما يرى النائم سبع بقرات ، قد امتلأن شجما ولحما ، يأكلهن سبع عجاف ، أى : يأكل هذه البقرات السبع السمان ، سبع بقرات أخرى عجاف أى : مهزبل ضعاف .

ورأيت - أيضا - فيما يرى النائم سبع سنبلات خضر ، قد امتلأت حبا ، ورأيت إلى جانبها سبع سنبلات ، أخر يابسات ، قد ذهبت نضارتها وخضرتها ، ومع هذا ، فقد لتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها .

يا أيها الملأ ، أى : الأشراف والعلماء من قومي ، أفتونى فى رؤياى ، أى : فسر والى رؤياى هذه . وبينوا لى ما تدل عليه .

« إن كنتم للرؤيا تعبرون ، أى إن كنتم تعرفون تفسيرها وتاويلها معرفة سليمة ، وتعلمون تعبيرها علما مستمرا .

و تعبرون ، من العبر ، وهو اجتياز الطريق أو النهر من جهة إلى أخرى ، وسمى المفسر للرؤيا عابرا ، لأنه يتأمل فيها وينتقل من كل طرف فيها إلى الطرف الآخر ، كما ينتقل عابر النهر أو الطريق من جهة إلى أخرى .

قال بعض العلماء والتعريف فى « الملك ، العهد ، أى ملك مصر ، وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون ، لأن هذا الملك لم يسكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها الهكسوس ، وهم العمالة ... الذين ملكوا مصر من ١٩٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٥٢٥ ق م ...

فالتعبير عنه بالملك هنا ، دون التعبير عنه بفرعون ، مع أنه عبر عن ملك مصر فى زمن موسى بفرعون ، يعتبر من دقائق إعجاز القرآن العلى ... » (١)

وقال . إنى أرى ... بصيغة المضارع ، مع أنه قد رأى بالفعل ، إستحضارا لصورة الرؤيا حتى لسكانها ماثلة أمامه .

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٢ ص ٢٨٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

وقال : وأخريابسات ، بدون إعادة لفظ سبع كما في البقرات ، للاكتفاء بدلالة المقابل في البقرات عليه .

قال صاحب السكشاف : فإن قلت : دل في الآية دليل على أن السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر ؟

قلت : الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنبال الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع ، ويكون قوله : وأخريابسات ، بمعنى : وسبعاً آخر يابسات ، (١) .

وفي نداء الملك لقومه بقوله : يا أيها الملأ أقتوني ... تشریف لهم ، وحض على استعمال عقولهم وعلومهم في تفسير هذه الرؤيا التي أزعجته .

واللام في قوله : للرؤيا ، لتقوية الفعل ، تعبرون ، حيث تأخر عن معمر له ، ويبدو أن القوم في ذلك الزمان ، كان بعضهم يشتغل بتفسير الرؤى ، وكان لهذا التفسير مكانته الهامة فيهم ...

فقد مرت بنا رؤيا يوسف ، ورؤيا ريفية في السجن ، ثم جاءت رؤيا الملك هنا ، وهذا يشعر بأن أفراد يوسف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك ، في زمن كثر فيه البارعون في تأويل الرؤى ، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - حتى نزداد مكانته عند الملك وحاشيته .

وقوله - سبحانه - (قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) حكاية لما رد به الكهان والأشراف على ما طلبه الملك منهم .

والأضغاث : جمع ضغث - بكسر الضاد - وهو ما جمع في حزمة واحدة من مختلف النبات وأعواد الشجر ، فصار خليطاً غير متجانس .

والأحلام : جمع حلم وحلم - بإسكان اللام وضمها تبعاً للحاء - وهو ما يراه

الثائم في منامه ، وتطلق كثيرا على ما ليس بحسن ، ففي الحديث الصحيح :
(الرؤيا من الله والحلم من الشيطان)^(١)

أى : قال الملائكة للملك : ما رأيته أيها الملك في نومك ما هو إلا تخاليط
أحلام ومنامات باطلة ، فلا تهتم بها .

فهم قد شبهوا ما رآه بالأضغاث في اختلاطها ، وعدم التجانس بين أطرافها .
ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) .

أى : لأننا لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام ، وإنما نحن من
أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة . .

وقولهم هذا إنما هو اعتذار عن جهلهم ، بمعرفته تفسير رؤيا الملك ،
ويبدو أن الملك كان يتوقع منهم هذا الجمل ، كما يشعر به قوله تعالى -
(إن كنتم للرؤيا تعبرون) فقد أنى بأن المفيدة للشك .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد فلماذا قالوا
أضغاث أحلام فجمعوا ؟

قلت : عو كما تقول فلان يركب الخيل ، ويلبس عمامة الخبز ، لمن لا يركب
إلا فرسا واحدا وماله إلا عمامة فردة ، تزيد في الوصف . فهو لاء أيضا
تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام . ويجوز أن يكون
قد قص عليهم مع هذه الرؤيا سواها ،^(٢) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث بعد أن عجز الملائكة عن تأويل
رؤياه فقال : (وقال الذى نجا منهما) أى : وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع
يوسف في السجن ثم خرج منه بريئا وهو ساقى الملك .

(١) صحيح البخارى - كتاب التعبير ج ٩ ص ١٧

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٤

(واذكر بعد أمة) أى : وتذكر بعد حين طويل من الزمان كيف قسم يوسف رؤياه تفسيراً صادقاً أيام أن كان معه فى السجن .

وأصل (اذكر) إذ تكرر بوزن افتعل ، مأخوذ من الذكر - بتشديد الذ وضماً - قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيهما ، ثم قلبت الدال دالا ليتأتى إدغامها فى الدال ، لأنها أخف من الدال .

والأمة : الجماعة التى تؤم وتقصداً لمرما ، والمراد بها هنا : المدة المتطاول من الزمان وكان هذا الساقى قد نسي ما أرضاه به يوسف من قوله (اذكر عند ربك) فلما قال الملك ما قاله بشأن رؤياه ، تذكر هذا الساقى حال يوسف قالوا : وكان ذلك بعد سنتين من خروجه من السجن .

وقوله (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أى : قال الساقى للملك وحاشيته أنا أخبركم بتأويله بتفسير رؤيا الملك التى خفى تفسيرها على الملأ من قوم فأرسلون أى : فابعثونى إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها .

ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه ، وهو يوسف - عليه السلام - لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا ، فيكون ذلك أوقع فى قلوبهم وأسمى لشأن يوسف - عليه السلام - .

وقال (فأرسلون) ليشرحهم أن هذا التأويل ليس من عند نفسه ، وإنما من عند من سيرسلونه إليه وهو يوسف - عليه السلام - .

وقوله (يوسف أيها الصديق أفتنا ..) من بديع الإيجاز بالحذف القرآن الكريم ، لأن المحذوف لا يتعلق بذكره غرض .

والتقدير : قال لهم أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون إلى من عنده العلم بذلك فأرسلوه فجاء إلى يوسف فى السجن فقال له : يا يوسف يا أيها الصديق .

والصديق : هو الإنسان الذى صار الصديق دأبه وشيمته فى كل أحوال ووصفه بملك لأنه جرب منه الصديق التام أيام أن كان معه فى السجن .

وقوله ، أفتنا ، أى فسر لنا تلك الرؤيا التى رآها الملك ، والتى عجز لنا

عن تفسيرها ، وهى أن الملك رأى فى منامه « سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ،

وقوله « لعل أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » تعليل لطلب الفتوى ، وبيان لأهميتها بالنسبة له وليوسف — عليه السلام —

أى : فسر لنا هذه الرؤيا « لعل أرجع إلى الناس » وهم الملك وأهل الحل والعقد فى مملكته ، « لعلهم يعلمون » تأريها ، فينتفحون به ، وترتفع منزلتك عندهم .

وهنا يجد يوسف — عليه السلام — لا يكتفى بتأويل الرؤيا تأويلا مجردا بل يؤولها تأويلا صادقا صحيحا ، ومعه النصح والإرشاد إلى ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال ، فقال : « كما حكى القرآن عنه - : قال تزرعون سبع سنين دأبا »

وتزرعون هنا خبر فى معنى الأمر ، بدليل قوله بعد ذلك ، « فذروه » وعبر عن الأمر بالمضارع مبالغة فى التعبير عن إستجابتهم لنصيحته ، فكأنهم قد امتثلوا أمره ، وهو يخبر عن هذا الإقتال .

و « دأبا » مصدر دأب على الشئ إذا استمر عليه ولازمه . يقال دأب فلان على فعل هذا الشئ يدأب دأبا ودأبا إذا داوم عليه ، وهو حال من ضمير « تزرعون » ، أى قال يوسف للساقى . فراجع إلى قومك فقل لهم إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم .

« فما حصدتكم من زرعكم فى كل سنة » فذروه فى سنبله ، أى : فاتركوا الحب فى سنبله ولا تخرجوه منها حتى لا يتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه ، « إلا قليلا مما تأكلون » أى : اتركوا الحب فى سنبله فلا تخرجوه منها ، إلا شيئا قليلا منه فأخرجوه من السنابل لحاجتكم إليه فى ماosكم .

وفى هذه الجملة إرشاد لهم إلى أن من الواجب عليهم أن يقتصدوا فى ما كولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضى ذلك .

قال القرطبي : هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفة
الآديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء
من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يفتو شيئا منها فهو مفسدة ودفع
مصلحة ، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية
ليحصل لهم التمكن من معرفة الله - تعالى - وعبادته الموصلة إلى السعادة
الآخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمته رحم :
عباده (١) .

وقوله : ثم يأتي من بعد ذلك ، أي : من بعد تلك السنين السبع المذكور
التي تزرعونها على عادتك المستمرة في الزراعة .

« سبع شداد ، أي : سبع سنين صعب على الناس ، لما فيهن من الجهد
والقحط ، يا كلن ما قدمتم هن ، أي : يا كل أهل تلك السنين الشداد ، كـ
ما أذخروه في السنوات السبع المتقدمة من حبوب في سنابلها .

وأسنند الأكل إلى السنين على سبيل المجاز العقلي ، من إسناد الشئ
إلى زمانه .

وقوله : إلا قليلا مما تحصنون ، أي : أن تلك السنين المجدة ستأكلو
فيها كل ما ادخرتموه في السنوات السابقة ، إلا شيئا قليلا منه يبقى محرزا
لتنفقوا به في زراعتكم لأرضكم .

فقوله : تحصنون ، من الإحصان بمعنى الإحراز والإدخار ، يقال أحص
فلان الشيء ، إذا جعله في الحصن . وهو الموضع الحصين الذي لا يوصل له
إلا بصعوبة .

وحاصل تفسير يوسف - عليه السلام - لتلك الرؤيا : أنه فسر البقر
السمان والسنبلات الخضر ، بالسنين السبع المخصبة ، وفسر البقرات العجا

والسنبيلات اليابسات بالسنين السبع المجدبة التي ستأتي في أعقاب السنين المخصبة
وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان ، بأكلهم ما جمع في السنين
المخصبة ، في السنين المجدبة .

ولقد كان هـذا التاويل لرؤيا الملك تأويلا صحيحا صادقا من يوسف
— عليه السلام — ، بسببه أنقذ الله — تعالى — مصر من مجاعة سبع سنين .
وقوله : ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، تبشير
لهم بأن الخير سيأتيهم بعد تلك السنوات الشداد ، فقد جرت سنة الله — تعالى —
أن يعقب العسر باليسر .

ولفظ : يغاث ، من الغوث بمعنى إزالة الهم والكرب عن طريق الأمطار
التي يسوقها الله — تعالى — لهم بعد تلك السنوات الشداد التي قل فيها المطر
يقال : غاث الله — تعالى — البلاد غيثا ، إذا ساق لها المطر بعد أن
يقتسوا من نزوله . ويعصرون من العصر وهو الضغط على ما من شأنه أن
يعصر ، لإخراج ما فيه من مائع سواء كان هذا المائع زيتا أم ماء أم غيرهما .
أي : ثم يأتي من بعد تلك السنين السبع الشداد ، عام فيه تزول الهموم
والكروب ونقص الأموال عن الناس ، بسبب إرسال الله — تعالى —
المطر عليهم ، فتخضر الأرض وتنبت من كل زوج بهيج ، وفيه يعصرون من
ثمار مزروعاتهم ما من شأنه أن يعصر كل زيتون وما يشبهه .

وهذا كفايه عن بدء حلول الرخاء بهم ، بعد تلك السنوات الشداد وما قاله
يوسف — عليه السلام — عن هذا العام الذي يأتي في أعقاب السنوات السبع
الشداد ، لا مقابل له في رؤيا الملك ، بل هو خارج عنها ، وذلك لزيادة
التبشير للملك وللناس ، ولأفهامهم أن هذا العلم إنما يوحى من الله — تعالى —
الذي يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة .

ولمّا نرى أن يوسف — عليه السلام — قد فسر رؤيا الملك تفسيراً
سليماً حكماً ، من نتائج الخير للملك وقومه

فإذا فعل الملك مع يوسف — عليه السلام — بعد ذلك ؟

لقد قص علينا القرآن الكريم ما طلبه الملك من حاشيته وما رد به يوسف — عليه السلام — على رسول الملك ، وما قالته النسوة وأمرأة العزيز في شأن يوسف وما طلبه — عليه السلام — من الملك ، لاستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه الخاص فيقول :

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّذِي قَطَعْتَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَهُ مَا خَطْبُكَ إِنَّ رَاوِدَتْنِ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) » .

فقوله — سبحانه — « وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، » حكاية لما طلبه الملك في ذلك الوقت من معازينه في شأن يوسف — عليه السلام — ، وفي الكلام حذف يفهم من المقام ، والتقدير :

وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه ما قاله يوسف في تفسير الرؤيا، أحضروا لي يوسف هذا لأراه وأسمع منه ، واستفيد من علمه .

وهذا يدل - كما يقول الامام الرازي - على فضيلة العلم ، فإنه - سبحانه - جعل ما علمه ليوسف سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الآخروية ؟ (١) .

وقوله - سبحانه - « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم ، بيان لما قاله يوسف - عليه السلام - لرسول الملك »

أي : فلما جاء رسول الملك إلى يوسف ليخبره بأن الملك يريد اقصاءه ، وقال له يوسف بأناة وإباء : ارجع إلى ربك ، أي إلى سيدك الملك ، فاسأله ، قبل خروجي من السجن وذهابي إليه « ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، أي : ما حالهن ، وما حقيقة أمرهن معي ، لأن الكشف عن حقيقة أمرهن معي يهمني أن يكون واضحا في الأذهان والعقول ، حتى يعرف الجميع أنني بريء ، وأنتي فني العرض طاهر الذيل .

والمراد بالسؤال في قوله « ارجع إلى ربك فاسأله ... » الحث والتحريض على معرفة حقيقة أمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن ...

ولم يكشف له يوسف عن حقيقة أمرهن معه لزيادة تهيجه على البحث والتقصي إذ من شأن الإنسان - خصوصا إذا كان حاكما - أن يأنف من أن يسأل عن شيء مهم . ثم لا يهتم بالإجابة عنه .

وقد أثر يوسف - عليه السلام - أن يكون هذا السؤال وهو في السجن ، لتظاهر الحقيقة خالصة ناصحة ، دون تدخل منه في شأنها .

وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز ، وقاه

ولحق زوجها ، واحترازا من مكرها ، ولأنهن كن شواهد على إقرارها بأنها قد راودته عن نفسه ، فقد قالت أمامهن بكل تبجح وتكشفاً ، فذلكم الذي ياتننى فيه ، واقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن بوليكونا من الصاغرين . .

واكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن ، دون التعرض لكيدهن له ، سترأ لهن ، وتنزها منه - عليه السلام - عن ذكرهن بما يسوؤهن .

ولذا فقد اكتفى بالإشارة الإجمالية إلى كيدهن ، وفوض أمرهن إلى الله تعالى - فقال : **إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** .

أى إن ربى وحده هو العليم بمكرهن بى ، وكيدهن لى ، وهو - سبحانه - هو الذى يتولى حسابهن على ذلك .

ولا شك فى أن امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيتة ، يدل دلالة واضحة على صبره ، وسمو نفسه ، وعلو همته

واقد أجاد صاحب الكشف فى تعليقه لامتناع يوسف عن الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تثبت برأته فقال :

لَمَّا تَأَنَّى وَتَثَبَّتْ يَوْسُفَ فِي إِجَابَةِ الْمَلِكِ ، وَقَدِمَ سَوَالُ الذَّنْوَةِ ، لِيُظْهَرَ بَرَاءَةُ سَابِحَتِهِ عَمَّا قَرَفَ بِهِ وَسَجَنَ فِيهِ ، لَمَّا يَتَسَلَّقُ بِهِ الْحَاسِدُ دُونَ إِلَى تَقْبِيحِ أَمْرِهِ عِنْدَهُ ، وَيَجْعَلُوهُ سَلْبًا إِلَى حُطِّ مَنَزَلَتِهِ لَدَيْهِ ، وَلَمَّا يَقُولُوا : مَا خَلَدَ فِي السَّجَنِ إِلَّا لِأَمْرِ عَظِيمٍ ، وَجَرَمٍ كَبِيرٍ ، حَقَّ بِهِ أَنْ يَسْجَنَ وَيُعَذَّبَ ، وَيَسْتَكْفَى شَرَّهُ .
وفيه دليل على أن الاجتهاد فى فنى التهم ، واجب وجوب انتقاء الوقوف فى مواقفها ، (١) .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث فى فضل يوسف - عليه السلام - فقال ما ملخصه :

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٣٢٥

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك - أى على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحتته ونزاهه عرضه - ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال بلى وليكن ليطمئن قلبى ، ويرحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد . ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة فى قوله - تعالى - : فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن . . . ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : ولو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر .

وروى عبدالرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : لقد عجزت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشرط أن يخرجونى .

ولقد عجزت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ، حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم إلى الباب ، وليكنه أراد أن يكون له العذر ، (١) . هذا ، وقوله - سبحانه - : قال ما خطبكم إذ راودتن يوسف عن نفسه ، حكاية لما فعله الملك بعد أن بلغه الرسول بما طلبه يوسف منه .

وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن رجع رسول الملك إليه وأخبره بما قاله يوسف ، استجاب الملك لما طلبه يوسف منه ، فأحضر النسوة وقال لهن : ما خطبكم إذ راودتن يوسف عن نفسه . . والخطب : مصدر خطب يخطب ، ويطلق - غالبا - على الأمر المهم الذى يجعل الناس يتحدثون فيه كثيرا ، وجمعه خطوب .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١٧ . وما ورد فى هذه الأحاديث إنما هو من باب التواضع من سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلا فإنه - صلى الله عليه وسلم - أقوى الرسل عزما ، وأرفعهم مقاما ، وأشد هم صبرا .

والمعنى : بعد أن جمع الملك النسوة قال لهن : ما الأمر الهام الذى حملكن فى الماضى على أن تراودن يوسف عن نفسه ؟ وهل وجدتن فيه ميلا إلى الإستجابة لכן ... ؟

قال صاحب الظلال مامليخه : والخطب الأمر الجلل ... فكان الملك كان قد استقصى فلم أمرهن قبل أن يواجههن ، وهو المعتاد فى مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه ، فهو يواجههن مقررأ الإتهام ، ومشيرا إلى أمر لهن جلل ...

ومن هذا نعلم شيئا بما دار فى حفل الاستقبال فى بيت الوزير ، ما قالت له النسوة ، ليوسف ، وما لحن به وأشرن إليه ، من الإغراء الذى بلغ حد المرادة .

ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد الموعر فى التاريخ ، فالجاهلية هى الجاهلية دائما ، وأنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذى يرتدى ثياب الأرستقراطية ، (١) .

وأمام هذه المواجهة التى واجهن بها الملك ، لم يملك الإنكار ، بل قلن بلسان واحد : « حاشا لله ، أى : معاذ الله .

« ما علمن عليه من سوء . قط ، وإنما الذى علمناه منه هو الاستعصام عن كل سوء .

وهنا ، قالت امرأة العزيز ، ويبدو أنها كانت حاضرة معهن عند الملك ، « الآن حصحص الحق ، أى : الآن ظهر الحق وانهكشف انكشافا تاما بعد أن كان خافيا والفعل حصحص أصله حصص بكما قيل ، كبكب فى كب ، وهو مأخوذ من الحصص بمعنى الاستئصال والإزالة ، تقول : فلان حصص شعره إذا استأصله وأزاله فظهر ما كان خافيا من تحته

(١) فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٩٥٥ .

ثم أضاف إلى ذلك قولها : أنا راودته عن نفسه ، أي : أنا التي طلبت منه ما طلبت ، وإنه لمن الصادقين ، في قوله : هي راودتني عن نفسي ، . . . وهكذا يشاء الله - تعالى - أن تثبت برامة يوسف على رؤوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التي يراها الملك ، وتنطق بها امرأة العزيز ، والنسوة اللاتي قطعن أيديهن .

قال صاحب الكشف : ولا مزيد على شهادتهن له بالبرامة والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قرنته به لأنهن خصومه ، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال (١) - إذ الفضل ما شهدت به الأعداء . -

ثم واصلت امرأة العزيز حديثها فقالت : ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، .

أي : ذلك الذي قلته واعترفت به على نفسي من أني راودته عن نفسه ، وإنما قلته ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته ، ولم أقل فيه شيئاً يسوؤه بعد أن فارقتي ، ولست بعيداً عني في السجن بضع سنين ، وإنما أنا أقرر أمام الملك وحاشيته بأنه من الصادقين

ولما قررت ذلك لأن الله - تعالى - لا يهدي كيد الخائنين ، أي : لا ينفذ كيدهم ولا يسدده ، بل يفضحه ويزدقه ولو بعد حين من الزمان . لذا فأنا التزمت الأمانة في الحديث عنه ، وابتعدت عن الخيانة ، لأن الله - تعالى - لا يرضاها ولا يقبلها .

فأنت ترى أن هذه المرأة التي شهدت على نفسها شهادة لا تبالى بما يترتب عليها بشأنها ، قد عللت شهادتها هذه بعلمتين :

أحدهما : كراهتها أن تخونه في غيبته بعد أن فقد الدفاع عن نفسه وهو في السجن . . .

وثانيمها : عليها بأن الله - تعالى - لا يهدى كيد الخائنين ولا يسدده ، وإنما يبطله ويزهقه ...

ثم أضافت إلى كل ذلك قولها ، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ،

أى : ومع أنى أعترف بأنه من الصادقين ، وأعترف بأنى لم أخنه بالغيب ، إلا أنى مع كل ذلك لا أبرئ نفسي ولا أنزهها عن الميل إلى الهوى ، وعن محاولة وصفه بما هو برئ منه ، فأنا التى قلت لزوجى فى حالة دهشة وانفعال إلى الشديد : ما جزاء من أراد ياهلك سوءا إن أن يسجن أو عذاب أليم ، وما حملن على هذا القول إلا هواى وشهوانى ، ونفسى ، إن النفس البشرية لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلا نفسا رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ، كنفس يوسف - عليه السلام -

وجملة : إن ربي غفور رحيم ، تعليل لما قبلها ، أى : إن ربي كثير الغفران وكثير الرحمة ، لمن يشاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

والذى يتأمل هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن امرأة العزيز ، يراه زاخرا بالصراحة التى ليس بعدها صراحة ، وبالمشاعر والانفعالات الدالة على إحترامها ليوסף الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، رغم الإغراءات المصحوبة بالترغيب والترهيب ، ويبدو لنا - والله أعلم - أن هذا الكلام ما قالته امرأة العزيز ، إلا بعد أن استقرت عقيدة الإيمان التى آمن بها يوسف فى قلبها ، وبعد أن رأت فيه إنسانا يختلف فى استبصارها بالله ، وفى سمو نفسه . عن غيره من الناس الذين رأتهم .

هذا ، وبرى كثير من المفسرين أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - : ولأنه لمن الصادقين ، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب . . . إلى قوله - تعالى - ، إن ربي لغفور رحيم ، هو من كلام يوسف - عليه السلام - : فصكون المعذب .

ذلك ليعلم، أى العزيز دأنى لم أخنه، فى أهله وبالغيب، أى فى غيبته، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين، من النساء والرجال، بل يبطل هذا الكيد ويفضحه. وما أبرئ نفسي دأى : ولا أنزهها عن السوء، وهذا من باب التواضع منه - عليه السلام - دإن النفس لأماراة بالسوء، أى : إن هذا الجنس من الأنفس البشرية، شأته الأمر بالسوء والميل إلى الشهوات .

دإلا ما رحم ربي، دن النفوس فقصمها عن أن تكون أماراة بالسوء .

دإن ربي غفور رحيم، لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من خلقه .

والذى نراه أن الرأى الأول الذى سرفنا عليه هو الجدير بالقبول، لأنه هو المناسب لسياق الآيات من غير تكلف، ولأنه لا يؤدى إلى تفكك الكلام وانقطاع بعضه عن بعض، بخلاف الرأى الثانى الذى يرى أصحابه أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - دولأنه لمن الصادقين، فإنه يؤدى إلى تفكك الكلام، وعدم ارتباط بعضه ببعض، فضلا عن أن وقائع التاريخ لا تؤيده، لأن يوسف - عليه السلام - كان فى السجن عندما أحضر الملك الفسوة وقال لمن : دماخطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه ...

وعندما قالت امرأة العزيز أمام الملك وأمامهن : الآن حصحص الحق ... إلى قوله - تعالى - دإن ربي غفور رحيم .

ومن المفسرين الذين أيدوا الرأى الأول الإمام ابن كثير فقد قال مملخصه : ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ... ، تقول : لما اعترفت بهذا على نفسي .. بأنى راودت هذا الشاب فامتنع، وما أبرئ نفسي ... ، تقول المرأة : ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتمنى، ولهذا راودته لأنها أماراة بالسوء .

دإلا ما رحم ربي، أى : إلا من عصمه الله - تعالى - ...

ثم قال : وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام . لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن

يوسف - عليه السلام - عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك ، (١) .
وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف
- عليه السلام - القسم الذي تعرض خلاله لألوان من المحن والآلام ، بعضها
من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز ، وبعضها من السجن ومرارته ...

ثم بدأت بعد ذلك في الحديث عن الجانب الثاني من حياته عليه السلام .
وهو جانب الرخاء والعز والتمكين في حياته ، فقال - تعالى - وقال الملك
اتقوني به أستخلصه لنفسي ... ،

وفي الكلام إيجاز بالحذف ، والتقدير وبعد أن انكشفت اليك براءة
يوسف - عليه السلام - انكشافاً تاماً ، بسبب ما سمعه عنه من النسوة
ومن امرأة العزيز ، وبعد أن سمع تفسيره للرؤيا وأعجب به ، كما أعجب بسمو
نفسه وإيمانه

بعد كل ذلك قال الملك لخاصته : اتقوني بيوسف هذا ، ليكون خالصاً
لنفسي ، وخاصاً بي في تصريف أموري ، وكتبان أسراري ، وتسيير دفة
الحكم في مملكتي .

والسين والتاء في قوله (أستخلصه) للبالغة في الخلوص له ، فهما للطلب
كما في استجاب ، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الشراكة .
فكان الملك قد شبه يوسف - عليه السلام - بالشيء النفيس النادر ،
الذي يجب أن يستأثر به الملك دون أن يشاركه فيه أحد سواه .
والفاء في قوله (فلما كلبه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) معطوفة على
محذوف يفهم من السياق .

والضمير المنصوب في (كلبه) يعود على الملك - على الراجح -
والمراد اليوم : الزمان الذي حدث فيه التخاطب بين الملك ويوسف .

و (مكن) صفة شبيهة من الفعل مكن - بضم الكاف - ، بمعنى صاحب مكانة ومرتبة عظيمة ، يقال : مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته ، ويقال : مكنت فلانا من هذا الشيء إذا جعلت له عليه سلطانا وقدره .
و (أمن) بزنة فعيل بمعنى مفعول ، أى : مأمون على ما نكلك به ، ومحل ثقتنا .
والمعنى : وقال الملك لجنده اتوننى بيوسف هذا أستخلصه لنفسى فأثروه به إلى مجلسه .

إزداد حب الملك له وتقديره إياه وقال له : إنك منذ اليوم عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمزلة الرفيعة ، التى تجعلنا نأتمنك على كل شيء فى هذه المملكة . وتلك المقالة من الملك ليوسف ، هى أولى بشائر عاقبة الصبر وعزة النفس ، ومهارة القلب ، والاستعصام بحبل الله المتين

وهنا طلب يوسف - عليه السلام - من الملك بعزة وإباء أن يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام بأعبائها فقال : وقال . اجعلنى على خزائن الأرض لى أحفظ علمى ، والخزائن جمع خزافة - بكسر الخاء وهم لاسم للمكان الذى يخزن فيه الشيء . والمراد بالأرض : أرض مصر :

أى : قال يوسف - عليه السلام - للملك : اجعلنى - أيها الملك المتصرف الأول فى خزائن أرض مملكتك ، المشتملة على ما يحتاج اليه الناس من أموال وأطعمة - لآنى شديد الحفظ لما فيها ، علم بوجوه تصرفهم فيها يفيد وينفع ...

فأنت ترى أن يوسف - عليه السلام - لم يسأل الملك شيئا لنفسه من أعراض الدنيا ؛ وإنما طلب منه أن يمينه فى منصب يتمكن بواسطته من القيام برعاية مصالح الأمة ، وقد بير شئونها لأنها مقبلة على سفوات عجاف ، تحتاج إلى خبرة يوسف وأمانته وكفائه ، وعلمه ...

قال صاحب الكشف : وصف يوسف نفسه بالامانة والكفاية اللتين

هنا طلبه الملوك من يولونه . وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إضاء وأحكام الله تعالى - وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعله أن أحدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله - تعالى - لا لحب الملك والدنيا ، (١)

وقال القرطبي ما ملخصه : ودلت الآية - أيضا - على جواز أن يخاطب الإنسان عملا يكون له أهلا .

فان قيل : فان ذلك يعارضه ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة من نهيه عن طلب الإمارة ...

فالجواب : أولا : أن يوسف - عليه السلام - إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره

الثاني أنه لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لأنني حسيب كريم ، وإن كان كذلك ، ولم يقل لأنني جميل دليح . . وإنما قال : لأنني حفيظ عليم ، فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله - تعالى - : فلا تزكوا أنفسكم ... ، (٢)

والخلاصة أن يوسف - عليه السلام - إنما قال ما قال الملك ، وطلب ما طلب منه ، لأنه علم أن هذا المنصب لا يصلح له أحد سواه في ذلك الوقت وفي تلك الظروف ، فهو يريد من ورائه خدمة الأمة لأجر منفعة شخصية لنفسه ...

وما قاله إنما هو من باب التحدث بنعمة الله - تعالى - الذي أعطاه هذه الصفات الكريمة ، والمناقب العالية ، وليس من باب تزكية النفس المحظورة .

(١) تفسير الكشاف ٢ ص ٣٢٨

(٢) راجع تفسیر القرطبي ٩ ص ٢١٦

هذا ، وقوله - سبحانه - « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » بيان
 لسنة الله - تعالى - في خلقه ، من كونه - سبحانه - لا يضيع أجر الصابرين
 المحسنين أى : ومثل هذا التمكين العظيم ، مكنا ليوسف في أرض مصر ، بعد
 أن مكث في سجنها بضع سنين ، لا لذنوب اقترفته ، وإنما لاستحصائه بأمر الله
 وقوله ، يتبوأ منها حيث يشاء ، تفصيل للتمكين الذى منحه الله - تعالى -
 ليوسف في أرض مصر . والتبوأ اتخاذ المكان للنزول به . يقال : تبوأ فلان
 فلانا منزلا ، أى مكنته منه وأنزله به أى : ومثل هـ - ذا التمكين العظيم ، مكنا
 ليوسف في أرض مصر ، حيث هيأنا له أن يتنقل فى أماكنها وهمازلها حيث
 يشاء له التنقل ، دون أن يمنعه مانع من الحلول فى أى مكان فيها . فالجمله
 الكريمة كفاية عن قدرته على التصرف والتنقل فى جميع أرض مصر ، كما
 يتصرف ويتنقل الرجل فى منزله الخاص .

وقوله : نصيب برحمتنا من نشاء ، بيان لكمال قدرته ، ونفاذ إرادته
 - سبحانه - أى : نصيب برحمتنا وفضلنا وعطائنا من نشاء عطاؤه من عبادنا
 بمقتضى حكمتنا ومشيتنا .

« ولا نضيع أجر المحسنين ، الذين يتقنون أداء ما كلفهم الله بأدائه ، بل
 نوفيهم أجرهم على إحسانهم فى الدنيا قبل الآخرة إذا شئنا ذلك .
 « ولاجر الآخرة خير ، وأبقى ، للذين آمنوا ، بالله - تعالى - إيماننا
 حقا ، وكافوا يتقون ، خالقهم - عز وجل - فى كل ما يأتون وما يذرون ، بأن
 يصونوا أنفسهم عن كل ما يفضبه .
 وهكذا كافأ الله - تعالى - يوسف على صبره وتقواه وإحسانه ، بما يستحقه
 من خير وسعادة فى الدنيا والآخرة .

ثم تطوى السورة بعد ذلك أحداثا تمكّل معرفتها إلى فهم القارىء وفطنته ،
 فهمى لم نحدثنا - مثلا - عن الطريقة التى اتبعها يوسف فى إدارته لخزائن أرض
 مصر ، إكتفاء بقوله « إنا نى حفيظ عليهم ، للدلالة على كفاءته وأمانته .

كذلك لم نتحدثنا عن أحوال الناس في السنوات السبع العجاف، وفي السنوات الخضر، لأن هذا مقرر ومعروف في دنيا الناس .

كذلك لم نتحدثنا عن صلة الملك وحاشيته بيوسف، بعد أن صار أميناً على خزائن الأرض، بل أفسحت المجال كله للحديث عن يوسف، إنزالاً للناس منازلهم، إذ هو صاحب التفسير الصحيح لرؤيا الملك، وصاحب الأفكار الحكيمة التي أنقذت الأمة من فقر سبع سنوات شداد، وصاحب الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإخلاص العباد له، بين قوم يشركون مع الله في العبادة آلهة أخرى .:

لم نتحدثنا السورة الكريمة عن كل ذلك، في أعقاب حديثها عن تمكين الله - تعالى - ليوسف في الأرض، وإنما انتقلت بنا بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن لقاء يوسف بإخوته، وعماد دار بينه وبينهم من محاورات، عن إكرامه لهم . . .

قال تعالى : « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » (٥٨) ولما جهزهم بجهازهم قال أثوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفٍ الكيل وأنا خير المُنزِلين (٥٩) فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون (٦٠) قالوا سنرؤد عنه أباه وإنا لفاعلون (٦١) وقال لفتيانہ اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون (٦٢) »

قال الفخر الرازي - رحمه الله - اعلم أنه لما عم القحط في البلاد، ووصل أيضاً إلى البلدة التي كان يسكنها يعقوب - عليه السلام - وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه : إن بمصر رجلاً صالحاً يدير الناس - أي يعطيهم الطعام وما هم في حاجة إليه في دماشهم، فاذهبوا إليه بدراهمكم، وخذوا منه الطعام. فخرجوا

إليه وهم عشرة وبقي بنيامين مع أبيه - ، ودخلوا على يوسف - عليه السلام - وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته ، وظهور صدق ما أخبر الله - تعالى - عنه في قوله ليوسف حال ما أقدموه في الحب لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، (١)

وقد جاءوا إليه جميعا - ما عدا بنيامين ، وهو الشقيق الأصغر ليوسف ليحصلوا منه على أكبر كمية من الطعام على حسب عددهم ، وليكون عندهم القدرة على صد العدوان إذا ما تعرض لهم قطاع الطرق الذين يكثرون في أوقات الجذب والجوع .

وعبر عن معرفة يوسف لهم بالجملة الفعلية ، وعن جهلهم له بالجملة الإسمية للاستعاز بأن معرفته لهم حصلت بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فعلم معرفتهم له كان أمرا ثابتا متعكنا منهم .

قال صاحب الكشف : لم يعرفوه لطول العهد ، ومفسار قته لإياهم في سن الحداثة ولا عاقداهم أنه قد ملك ، ولذهابه عن أوهامهم لقله فكرهم فيه ، واهتمامهم بشأقه ، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسيادة عن حاله التي فارقه عليها طريقا في البشر ، حتى لو تخيلوا أنه هو لم يصدقوا أنفسهم وظنونهم ، ولأن الملك مما يبدل الزى ، ويلبس صاحبه من التيب والاستمظام ما ينكر له المعروف ... ، (٢)

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن المجاعة حدثت في السبع السنين الشداد شملت مصر وما جاورها من البلاد - كما سبق أن أشرنا - .

كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد . بفضل حسن تدبير يوسف - عليه السلام - ، وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة . وسهره على مصالح الناس ، ومراقبته لشئون بيع الطعام ، وعدم الاعتماد على غيره

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ١٦٥

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٢٩ .

ذلك، حتى إن إخوته قد دخلوا عليه رحله، دون غيره من المسئولين في مصر .

وقوله - سبحانه - : ولما جهزهم بجهازهم قال انتوني بأخ لكم من آيكم بيان لما فعله يوسف معهم بعد أن عرفهم دين أن يعرفوه .

وأصل الجهاز - بفتح الجيم وكسر ها قليل - : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، يقال جهزت المسافر ، أى هيات له جهازه الذى يحتاج إليه فى سفره . ومنه جهاز العروس وهو ماتزف به إلى زوجها ، وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه فى دفنه

والمراد : أن يوسف بعد أن دخل عليه إخوته وعرفهم ، أكرم وفادتهم . وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه ، وهيا لهم ما هم فى حاجة إليه من الطعام وغيره ، ثم استدرجهم بعد ذلك فى الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم

وذلك لأن قوله لهم : انتوني بأخ لكم من آيكم ، يستلزم أن حديثاً متفقاً نشأ بينه وبينهم ، عرف منه يوسف ، أن لهم أخاً من آيهم لم يضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفته لهم مباشرة ، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك .

ومن هنا قال المفسرون إن قوله : انتوني بأخ لكم من آيكم ، يقتضى كلاماً دار بينه وبينهم نشأ عنه هذا الطلب ، وما قالوه فى توضيح هذا الكلام : ماروى من أنهم بعد أن دخلوا عليه زال لهم : من أقم وشأنكم ؟ فقالوا : نحن قوم من أهل الشام ، جئنا نبتاع ، ولنا أب شيخ صديق فى من الأنبياء اسمه يعقوب ، فقال لهم : كم عددكم قالوا عشرة ، وقد كنا اثني عشر ، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك ، وكان أحبنا إلى أبينا ، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه ، هو باقى لديه يتسلى به ، فقال لهم حينئذ : انتوني بأخ لكم من آيكم ، (١) .

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ٢٧ .

ويروى أنه قال لهم ذلك بعد أن طلبوا منه شيئاً زائداً عن عددهم ، لأن لهم أخاً لم يحضر معهم ، فأعطاهم ما طلبوه ، واشترط عليهم إحضار أخيهم هذا معهم ، ليتأكد من صدقهم ، (١) .

والمعنى : وبعد أن أعطى يوسف إخوته ما هم في حاجة إليه ، وعرف منهم أن لهم أخاً من أبيهم قد تركوه في منازلهم ولم يحضر معهم ، قال لهم : أنا أريدكم في الزيارة القادمة لي ، أن تحضروه معكم لأراه ...

وقوله : من أبيكم ، حال من قوله وأخ لكم ، أى : أخ لكم حالة كونه من أبيكم ، وليس شقيقاً لكم ، فإن هذا هو الذى أريده ولا أريد غيره .

وهذا من باب المبالغة في عدم الكشف لهم عن نفسه ، حتى لا يكتشفوا معرفته لهم ولا به إلا من ذكرهم لإياه له

وقوله : ألا ترون أنى أوف السكيل وأنا خير المنزلين ، تحريض لهم على الإتيان به ، وترغيب لهم في ذلك حتى ينشطوا في إحضاره معهم .

أى : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم ، وأعطيتمكم فوق ما تريدون من الطعام ، وأنزلتكم ببلدى منزلاً كريماً

ومادام أمرى معكم كذلك ، فلا بد من أن تأتوني معكم بأخيكم من أبيكم فى المرة القادمة ، لئكى أزيد فى إكرامكم وعطائكم .

والمراد بإيفاء السكيل : إتمامه بدون قطفه أو تنقيص .

وعبر بصيغة الاستقبال : ألا ترون ، مع كونه قد قال هذا القول بعد تجهيزه لهم . للدلالة على أن إيفاءه هذا عادة مستمرة له معهم كلما أتوه .

وجمله : وأنا خير المنزلين ، حالية ، والمنزل : المضيف لغيره . أى : والحمد لله أنى خير المضيفين لمن نزل فى ضيافتى ، وقد شاهدتم ذلك بأنفسكم .

ثم أتبع هذا الترغيب بالترهيب فقال : (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) .

أى : لقد رأيتم منى كل خير فى لقاءكم معى هذا ، وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أخاكم من أبيكم فى لقاءكم القادم معى ، فإن لم تأتوني به معكم عند عودتكم إلى ، فإننى لن أبيعكم شيئاً مما تريدونه من الأطعمة وغيرها ، وفضلاً عن ذلك فإننى أحذركم من أن تقرّبوا بلادى فضلاً عن دخولها .

هذا التحذير منه - عليه السلام - لهم ، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى ، لأن ما معهم من طعام لا يكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان .

وقوله - سبحانه - : (قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) حكاية لما رد به إخوة يوسف عليه .

أى قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار أخيههم لأبيهم معهم : « سنراود عنه أباه ، أى : سنطلب حضوره معنا من أبيه برفق ولين ومخادعة ومحيلة » وإنا لفاعلون ، هذه المراودة باجتهاد لا كمال ولا ملل معه وفاء لحقك علينا .

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيههم لأبيهم معهم - وهو بنيامين الشقيق الأصغر ليوسف - ، ليس أمراً سهلاً أو ميسوراً ، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف مع إخوته وهم على وشك الرحيل فقال : « وقال لفتيانہ اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

والفتيان : جمع فتى . والمراد بهم هنا من يقومون بخدمته ومساعدته فى عمله .

(٨ - - سورة يوسف)

والبضاعة في الأصل : القطعة الوفيرة من الأموال التي تقتني للتجارة ، مأخوذة من البضع بمعنى القطع .

والمراد بها هنا : أثمان الطعام الذي أعطاه لهم يوسف - عليه السلام -

والرجال : جمع رجل ، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب .

والمعنى : وقال يوسف - عليه السلام - لفتيانه الذين يقومون بتلبية

مطالبه : أعيذوا إلى رجال هؤلاء القوم - وهم إخوته - الأثمان التي دفعوها

لنا في مقابل ما أخذوه منا من طعام ، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم ، لعل

هؤلاء القوم عندما يعودون إلى بلادهم ، ويفتحون أمتهنتهم ، فيجدون فيها

الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما أخذوه من طعام وغيره .

لعلمهم حينئذ يرجعون إلىنا مرة أخرى ، ليدفعوها لنا في مقابل ما أخذوه .

وكان يوسف - عليه السلام - أراد بفعله هذا حملهم على الرجوع إليه

ومعهم بنيامين ، لأن من شأن النفوس الكبيرة أن تقابل الإحسان بالإحسان

وأن تأنف من أخذ المبيع دون أن تدفع لصاحبه ثمنه .

وقوله : لعلمهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، تعامل لأمره فتيان بهل

البضاعة في رجال إخوته . إذ أن معرفتهم بأن بضاعتهم قد ردت إليهم لا يتم

إلا بعد انقلبهم - أي رجوعهم - إلى أهلهم ، وبعد تفرغها عندهم .

وقوله : لعلمهم يرجعون ، جواب للأمر . أي : اجعلوها كذلك ، لعلمهم بعد

اكتشافهم أنهم مادفعوا لثأثمن ما أخذوه ، يرجعون إلينا ليدفعوا لنا حقنا .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عمادار بين يوسف وإخوته

بعد أن دخلوا عليه فعرّفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم بقوة أن

يعودوا إليه ومعهم أخوهم لأبيهم ... فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد حكّت لنا السورة الكريمة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم من

محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم في اصطحاب بنيامين معهم في رحلتهم

القادمة إلى مصر ، كما حكّت ما رد به أبوهم عليهم . قال - تعالى - :

« فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِّعْ مِنَّا السَّكِيلُ فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِيتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْنِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ (٦٥) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُتَوْتِنَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ الْحَكَمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَهَا ، وَلَسَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) » .

... وقوله - سبحانه - : « فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِّعْ مِنَّا السَّكِيلُ فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ... » حكاية لما قاله لإخوة يوسف لأبيهم فور التقائهم به .

والمراد بالسكيل : الطعام المسكيل الذي هم في حاجة إليه .

والمراد بمنعه : الحيلولة بينهم وبينه في المستقبل ، لأن رجوعهم بالطعام قريبة على ذلك .

والآية السكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يدرك من السياق والتقدير : ترك لإخوة يوسف مصر ، وعادوا إلى بلادهم ، بعد أن وعدوه بتنفيذ

بما طلبه منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، ودخلوا على أبيهم قالوا له بدون تمهل :
 « يا أبانا ، لقد حكم عزيز مصر بعدم بيع أى طعام لنا بعد هذه المرة ، إذا
 لم نأخذ معنا أخانا «بنيامين» ليراه عند عودتنا إليه ؛ فقد قال لنا «مهدأ عند
 مغادرتنا له . « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . »

وأنت تعلم أننا لا بد من عودتنا إليه ، لجلب احتياجاتنا من الطعام وغيره ،
 فبرجوك أن توافقنا على اصطحاب «بنيامين» معنا ، وإنا له لحافظون ، حفظا
 تاما من أن يصيبه مكروه .

والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن قولهم هذا لأبيهم . كان بمجرد
 رجوعهم إليه ، وكان قبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله . . .

وكأنهم فعلوا ذلك ليشرعوه بأن إرسال بنيامين معهم عند سفرهم إلى مصر ،
 أمر على أكبر جانب من الأهمية ، وأن عدم إرساله سيترتب عليه منع الطعام عنهم .
 وقرأ حمزة والسكسائي : فأرسل معنا أخانا يكتل ، - بالياء - أى : فأرسله
 معنا لياخذ نصيبه من الطعام المكال ، لأن عزيز مصر لا يعطى طعاما لمن كان غائبا .
 وعلى كلا القراءتين فالفعل مجزوم في جواب الطلب .

وقالوا له : « وإنا له لحافظون » ، بالجملة الإسمية ، لتأكيد حفظهم له ؛ وأن
 ذلك أمر ثابت عندهم ثبوتا لا مناص منه .

ولكن يبدو أن قولهم هذا قد حرك كوامن الأحران والآلام في نفس
 يعقوب ، فهم الذين سبق أن قالوا له في شأن يوسف - أيضا - « أرسله معنا
 غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » .

لذا نجده يرد عليهم في استنكار وألم بقوله : « قال هل آمنكم عليه إلا كما
 أمنتكم على أخيه من قبل »

أى : قال يعقوب لأولاده بعد أن طلبوا منه بإلحاح إرسال أخيه معهم ،
 وبعد أن تعهدوا بحفظه : أتريدون أن أؤمنكم على ابنى «بنيامين» ، كما أؤمنكم
 على شقيقه يوسف من قبل هذا الوقت ، فكأنت النتيجة التى تعرفونها جميعا .
 وهى فراق يوسف لى فراقا لا يعلم مداه إلا الله - تعالى - ١١٩

لا ، إننى لا أثق بوعودكم بعد الذى حدث منكم معى فى شأن يوسف .
فلاستفهام فى قوله ، هل آمنكم ... ، الإنكار والنفي .

وقوله (فأنه خير حافظا وهو أرحم الراحمين) تفریع على استنكاره
لطلبهم لإرسال (بنیامین) معهم ، وتصريح منه لهم بأن حفظ الله - تعالى -
خير من حفظهم .

أى : إننى لا أثق بوعودكم لى بعد الذى حدث منكم بالنسبة ليوسف ،
ولأنما أثق بحفظ الله ورعايته (فأنه) - تعالى - (خير حافظا) لمن يشاء
حفظه ، فن حفظه سلم : ومن لم يحفظه لم يسلم ، كما لم يسلم أخوه يوسف
من قبل حين ائتمنتكم عليه (وهو) - سبحانه - (أرحم الراحمين) خلقه ،
فأرجو أن يشملنى برحمته ، ولا يفجئنى فى (بنیامین) ، كما فجئت فى شقيقه
يوسف من قبل .

ويبدو أن الأبناء قد اقتنعوا برد أبيهم عليهم ، واشتموا من هذا الرد
إمكان إرساله معهم ، لذا لم يراجعوه مرة أخرى .

قال الآلوسى ما ملخصه : وهذا - أى رد يعقوب عليهم - ميل منه
- عليه السلام - إلا الإذن والإرسال لما رأى فيه من المصلحة ، وفيه
أيضا من التوكل على الله - تعالى - ما لا يخفى ، ولذا روى أن الله - تعالى -
قال وعزتى وجلالى لأردهما عليك إذ توكلت على ... وقرأ أكثر السبعة
(فأنه خير حفظا ...) وقرأ حمزة والكسائى وحفص (حافظا ...) وعلى
القراءتين فهو منصوب على أنه تمییز ... (١) .

ثم اتجه الأبناء بعد هذه المحاورة مع أبيهم إلى أمتعتهم ليفتحوها ، ويخرجوا
ما بها من زاد حضروا به من مصر ، فكانت المفاجأة التى حكها القرآن فى قوله :
(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ...)

أى : وحين فتحوا أوعيتهم التى بداخلها الطعام الذى اشتروه من عزيز

مصر . فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد ردت إليهم معه ، ولم يأخذوها عزيز مصر ، بل دسها داخل أوعيتهم دون أن يشعروا . فدهشوا وقالوا لا بهم متعجبين : يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ، أى : يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذى فعله معنا عزيز مصر ؟ لقد أعطانا الطعام الذى نريده ، ثم رد إلينا ثمنه الذى دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك . فما فى قوله : ما نبغى ، استفهامية ، والاستفهام للتعجب من كرم عزيز مصر ، وهى مفعول نبغى ، ونبغى من البناء - بضم الباء - وهو الطلب . والمراد ببضاعتهم : الثمن الذى دفعوه للعزيز فى مقابل ما أخذوه منه من زاد ، وجملة : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، مستأنفة لتوضيح ما دل عليه الاستفهام من التعجب ، بسبب ما فعله معهم عزيز مصر من مروءة وسخاء .

فكانهم قالوا لا بهم : كيف لا نهجب وندهش ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا من حيث لا ندرى ومعها الأحمال التى اشتريناها من عزيز مصر لم ينقص منها شئ ؟ وقوله : ونمير أهلنا ، معطوف على مقدر يفهم من الكلام ، أى : (هذه بضاعتنا ردت إلينا) فنتنفع بها فى معاشنا ، ونمير أهلنا ، أى : نجلب لهم الميرة - بكسر الميم وسكون الياء - وهى الزاد الذى يؤتى به من مكان إلى آخر . ونحفظ أخاننا ، عند سفره معنا من أى مكروه .

« ونزداد ، بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر . »
« كيل بعير ، أى : ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه الميرة نظرا لوجود أخينا معنا . »

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف - عليه السلام - كان يعطى من الطعام على عدد الرووس ، حتى يستطيع أن يوفر القسوت للجميع فى تلك السنوات الشداد .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ذلك كيل يسير ، يعود إلى الزاد الذى أحضره من مصر أى : ذلك الطعام الذى أعطانا إياه عزيز مصر طعام

يسير ، لا يكفيننا إلا لمدة قليلة من الزمان ، ويجب أن نعد إلى مصر لنأني بطعام آخر .

وفي هذه الجمل المتعددة التي حكاها القرآن عنهم ، تحريض واضح منهم لا يبيهم على أن يسمح لهم باضطحاب بنيامين ، معهم في رحلتهم القادمة إلى مصر ومن مظاهر هذا التحريض : مدحهم لعزيم مصر الذي رد لهم أنمان مشترياتهم ، وحاجتهم الملحة إلى استجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيههم وازدياد الأظعمة بسبب وجوده معهم . . .

ولكن يعقوب - عليه السلام - مع كل هذا التحريض والإلحاح ، لم يستجب لهم إلا على كره منه ، واشترط لهذه الاستجابة ما حكاها القرآن في قوله : وقال لن أرسله معكم حتى تأتون موثقا من الله لتأقنني به إلا أن يحاط بكم ، والموثق : العهد الموثق باليمين ، وجمعه موثيق .

أي : قال يعقوب - عليه السلام - لهم : والله لن أرسل معكم بنيامين ، إلى مصر ، حتى تحلفوا بالله ، بأن تقولوا : والله لنأتينك به عند عودتنا ، وإن نتخلى عن ذلك ، إلا أن يحاط بنا ، أي : إلا أن نهلك جميعا ، أو أن تغلب عليه بما هو فوق طاقتنا .

يقولون : أحيط بفلاذ إذا هلك أو قارب الهلاك ، وأصله من إحاطة العدو بالشخص ، واستعمل في الهلاك ، لأن من أحاط به العدو بهلك غالبا .

وسمى الحلف بالله - تعالى - موثقا ، لأنه مما تؤكد به العهود وتقوى وقد أذن الله - تعالى - بذلك عذر وجود ما يقتضي الحلف به - سبحانه - وقوله : لتأقنني به ، جواب لقسم محذوف والاستثناء في قوله : إلا أن يحاط بكم ، مفرغ من أعم الأحوال ، والتقدير : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله وتقولوا ، والله لنأتينك به معنا عند عودتنا ، في جميع الأحوال والظروف إلا في حال هلاككم أو في حال عجزكم التام عن مدافعة أمر حال بينكم وبين الإتيان به معكم .

وقوله ، فلما آتوه موثقهم ، أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين بأن أقسموا له بأن يأتوا بأخيم معهم عند عودتهم من مصر .
 وقال ، لهم على سبيل التأكيد والحث على وجوب الوفاء : الله ، - تعالى -
 على ما نقول ، أنا وأنتم ، وكيل ، أى : مطلق ورقيب ، وسيجازى الأوفياء
 خيرا ، وسيجازى الناقضين لعهودهم بما يستحقون من عقاب .

قال ابن كثير : وإنما فعل ذلك ، لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الحيرة
 التى لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما وصى به يعقوب أبناءه عند سفرهم فقال
 وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... ،

أى : وقال يعقوب - الأب العطوف - لأبنائه وهو يودعهم : يا بنى إذا
 وصلتكم إلى مصر ، فلا تدخلوا كلكم من باب واحد ، وأتم أحد عشر رجلا
 بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب .
 قالوا : وكانت أبواب مصر فى ذلك الوقت أربعة أبواب .

وقد ذكر المفسرون أسباباً متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه ، وأحسن
 هذه الأسباب ما ذكره الآلوسى فى قوله : نهاهم عن الدخول من باب واحد ؛
 حذراً من إصابة العين - أى من الحسد ، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة ...
 فكانوا مظنة لأن يعانوا - أى لأن يحسدوا - إذا ما دخلوا كوكبة واحدة ...
 ثم قال : والعين حق ، كما صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصح
 أيضاً بزيادة ، ولو كان شيء يسبق القدر مسبقته العين ، ...

وقد ورد أيضاً : إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجل القدر ... (١)

وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ، خوفه عليهم
 من أن يسترعى عددهم حرامى مدينة مصر إذا ما دخلوا من باب واحد ،

(١) تفسير الآلوسى - بتصرف وتلخيص - ج ١٣ ص ١١ .

فيتراعى في أذهانهم أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك ، فربما سجنوهم ، أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف - عليه السلام - ...

وقوله : وما أغنى عنكم من الله شيئاً ، اعتراف منه - عليه السلام - بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره الله - تعالى - وأرادهم لهم ، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة .

أى : وإنى بقولى هذا لكم ، لا أدفع عنكم شيئاً قدره الله عليكم ، ولو كان هذا الشئ قليلاً .

إن الحكمم لإلا الله ، أى : ما الحكمم فى كل شئ إلا الله - تعالى - وحده لا ينازعه فى ذلك منازع ، ولا يدافعه مدافع .
 عليه ، وحده ، توكلت ، فى كل أمورى .

و عليه ، وحده ، فليتوكل المتوكلون ، أى المريدون للتوكل الحق ، والاعتماد الصدق الذى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها .
 إذ أن كلا من التوكل والأخذ بالأسباب مطلوب من العبد ، إلا أن العاقل عندما يأخذ فى الأسباب يحزم بأن الحكمم لله وحده فى كل الأمور ، وأن الأسباب ما هى إلا أمور عادية ، يوجد الله - تعالى - معها ما يريد إيجادها ، ويمنع ما يريد منعه ، فهو الفعال لما يريد . ويعقوب - عليه السلام - عندما أوصى أبناءه بهذه الوصية ، أرادهم بتعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة ، تأدياً مع الله - تعالى - واضع الأسباب ومشرعها . . .

ثم بين - سبحانه - أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال : ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوم ، ما كان يغنى عنهم من الله من شئ . إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، .

والمراد بالحاجة هنا : نصيحته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ، خوفاً عليهم من الحسد .

ومعنى « قضاها ، أظهرها ولم يستطع كتابتها يقال : قضى فلان حاجة لنفسه .
إذا أظهر ما أضمره فيها .

أى : وحين دخل أبناء يعقوب من الأبواب المتفرقة التى أمرهم أبوم بالدخول منها ، وما كان ، هذا الدخول « يغنى عنهم ، أى يدفع عنهم من قدر « الله من شىء » ، قدره عليهم ، وليكن الذى حل يعقوب على أمرهم بذلك ، حاجته أى رغبة خطرت فى نفسه « قضاها ، أى : أظهرها ووصاهم بها ولم يستطع إخفاءها لشدة حبه لهم مع عاتقاده بأن كل شىء بقضاء الله وقدره .

وقوله -- سبحانه -- « وإنه لذو علم لما علمناه ، ثناء من الله -- تعالى -- على يعقوب بالعلم وحسن التدبير .

أى : وإن يعقوب -- عليه السلام -- لذو علم عظيم ، للشىء الذى علمناه إياه عن طريق وحيينا ، فهو لا ينسى منه شيئا إلا ما شاء الله .

وقوله « وليكن أكثر الناس لا يعلمون ، أى : لا يعلمون ما لا يعلمه يعقوب -- عليه السلام -- من أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله -- تعالى -- .
أو : وليكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله -- تعالى -- لأبيائه وأصفىائه من العلم والمعرفة وحسن التأتى للأمر .

وإلى هنا تكون الآيات السكرية قد فصلت الحديث عما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم فى شأن سفر أخيم معهم فإذا كان بعد ذلك ؟
لقد كان بعد ذلك أن سافر إخوة يوسف إلى مصر ، ومعهم « بنيامين » الشقيق الأصغر ليوسف ، والتقوا هناك بيوسف ، وتكشف هذا اللقاء ، عن أحداث مثيرة ، زاخرة بالإفغالات والمفاجآت والمحاورات التى حكها القرآن فى قوله -- تعالى -- :

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون (٦٩) فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى

رجل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها المير إنكم لسارتون (٧٠) قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون (٧١) قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم (٧٢) قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين (٧٣) قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين (٧٤) قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين (٧٥) فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم (٧٦) قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون (٧٧) قالوا يأيتها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين (٧٨) قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون (٧٩) فلما استنأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين (٨٠) ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين (٨١) واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون (٨٢) .

وقوله سبحانه - ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه... - شروع في بيان ما دار بين يوسف - عليه السلام - وبين شقيقه بنيامين بعد أن حضر مع إخوته .

وقوله « آوى » من الإيواء بمعنى الضم . يقال آوى فلان فلانا إذا ضمه إلى نفسه ، ويقال : تأوت الطير وتآوت ، إذا تضامت ونجّمت .

وقوله « فلا تبتئس » : افتعال من البؤس وهو الشدة والضر . يقال بئس - كمع - فلان بؤساً وبؤساً ، إذا يشتد حزنه وهمه .

والمعنى : وحين دخل لإخوة يوسف عليه ، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه وقال له نطمئنا ومواسياً : إني أنا أخوك الشقيق ، فلا تحزن بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى ، فإن الله - تعالى - قد عوض صهرنا خيراً ، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله تعالى - عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ونزل ضيافته وأفاض عليهم الصلاة والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعهم على شأنه وما جرى له : لا تبتئس أى : لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكنيان هذا عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعهم عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرما معظما (١)

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف .. عليه السلام - مع إخوته ، لى يبقى أخاه معه فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال : « فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ... » ، والجهاز كما سبق أن بينا : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ...

والسقاية : أناء كان الملك يشرب فيه ، وعادة ما يكون من معدن نفيس وقد كان يوسف - عليه السلام - يكتال به فى ذلك الوقت نظرا لقلة الطعام وندرته .

وهذه السقاية هى التى أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع أى :

وحين أعطى يوسف إخوته ما هم في حاجة اليه من زاد وطعام ، أوعز إلى بعض فتية أن يدسوا في متاع أخيه بنيامين درن أن يشعر بهم أحد . .

وقوله : ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، بيان لما قاله بعض أعوان يوسف لإخوته عندما تهيئوا للسفر ، وأرشكوا على الرحيل .

والمراد بالمؤذن هنا : المنادى بصوت مرتفع ليعلن الناس ما يريد إلامهم به . والمراد بالعير هنا : أصحابها . والأصل فيها أنها اسم للإبل التي تحمل الطعام وقيل العير تطلق في الأصل على قافلة الحمير ، ثم تجوز فيها فأطلقت على كل قافلة تحمل الزاد وألواز التجارة .

- أي : ثم فاجئ مناد على إخوة يوسف - عليه السلام - وهم يتجهزون للسفر ، أو وهم منطلقون إلى بلادهم بقوله : يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصل في شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة .

قال الآلوسي ما ملخصه : والذي يظهر أن ما فعله يوسف ، من جعله السقاية في رحل أخيه ، ومن إتهامه لإخوته بالسرقة إنما كان بوحى من الله - تعالى - لما علم - سبحانه - في ذلك من الصلاح ، ولما أراد من امتحانهم بذلك ، ويؤيده قوله - تعالى - كذلك كدنا أيوسف ، (١)

ثم بين - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال - تعالى - قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ،

وتفقدون : من الفقد ، وهو غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه .
أي : قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون :
قالوا لهم : ماذا تفقدون - أيها الناس - من أشياء حتى اتهمتنا بأننا سارقون ؟
وهنا رد عليهم المؤذن ومن معه من حراس : قالوا نفقد صواع الملك ،
أي : صاعاً التي يشرب فيه ، ويكتال به للمتارين .

« ولمن جاء به ، أى بهذا الصاع ، أو دل على سارقته .

« حمل بعير ، من الطلعم زيادة على حقه كـكافأة له .

« وأنا به زعيم ، أى : وأنا بهذا الجعل كفيـل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك .

ويبدو أن القائل لهذا القول هو المؤذن السابق ، ولعله قد قال ذلك بتوجيه من يوسف - عليه السلام -

وهنا نجد إخوة يوسف يردون عليهم ردا يدل على استنكارهم لهذه التهمة وعلى تأكدهم من برائتهم فيقولون : « قالوا تا الله ، لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ،

أى : قال إخوة يوسف المنادى ومن معه الذين اتهموهم بالسرقة ، تالله يا قوم ، لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم ، لكي نفسد فيها أو نرتكب مالا يليق ، وما كنا في يوم من الأيام ونحن في أرضكم لنتـركـب هذه الجريمة . لأنها تضرنا ولا تنفعنا ، حيث إننا في حاجة إلى التردد على بلادكم لطلب الطعام ، والسرقة تحـوـل بيننا وبين ذلك ، لأنكم بسببها ستمنعوننا من دخول أرضكم . وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا .

وهنا يرد عليهم المنادى وأعوانه بقولهم : « قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . »
أى : قال المنادى وأعوانه لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة السرقة نفياً تاماً :

« إذاً فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك في شريعتكم ، إن وجدنا هذا الصواع في حوزتكم ، وكنتم كاذبين في دعواكم أنفسكم ما كنتم سارقين . فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق في شريعتهم بقولهم :
« قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ، .

والمراد بالجزاء : العقاب الذى يعاقب به السارق في شريعتهم . والضمير في قوله ، جزاؤه ، يعود إلى السارق .

أى قال لإخوة يوسف : جزاء هذا السارق الذى يؤخذ صواع الملك فى رحله ومثاعه أن يسترق لمدة سنة ، هذا هو جزاؤه فى شريعتنا .

قال الشوكانى ما ملخصه : وقوله ، جزاؤه ، مبتدأ ، وقوله ، من وجد فى رحله ، خبر المبتدأ .

والتقدير : جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد فى رحله - أى استرقاقه لمدة سنة - ، ونكون جملة ، فهو جزاؤه ، لنا كيد الجملة الأولى وتقريرها . قال الزجاج وقوله ، فهو جزاؤه ، زيادة فى البيان . أى : جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير ، (١) .

وقالوا : جزاؤه من وجد فى رحله ، ولم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقة ، للإشارة إلى كمال نزاهتهم ، وبراءة ساحتهم من السرقة ، حتى لكان السنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها فى هذا المقام .

وقوله ، كذلك نجزى الظالمين ، مؤكد لما قبله . أى مثل هذا الجزاء العادل وهو الاسترقاق لمدة سنة ، نجزى الظالمين الذين يمتدون على أموال غيرهم وقوله - سبحانه - ، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، معطوف على كلام محذوف يفهم من المقام .

والتقدير : وبعد هذه المخاورة التى دارت بين إخوة يوسف وبين الذين انهموهم بالسرقة وحتى الإخوة بتفتيش أعتعتهم للبحث عن الصواع بداخلها ، فبدأ ، المؤذن بتفتيش أوعيتهم ، قبل أن يفتش وعاء بنيامين ، فلم يجد شيئاً بداخل أوعيتهم .

فلما وصل إلى وعاء بنيامين وقام بتفتيشه وجد السقاية بداخله ، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعاً .

ويبدو أن هذا الحوار من أوله كان بمشهد ومرأى من يوسف - عليه

السلام - ، وكان أيضا بتدبير وتوجيه منه للمؤذن ومن معه ، فهو الذى أمر المؤذن بأن ينادى ، أيتها العير إنكم لسارقون ، ، وهو الذى أشار عليه بأن يسألهم عن حكم السارق فى شريعتهم ، وهو الذى أمره بأن يبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل أن يفتش وعاء شقيقه بنيامين ، دفعاً للتهمة ، ونفياً للشبهة ...

روى أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء بنيامين اتفتيحه قال يوسف - عليه السلام - : ما أظن هذا أخذ شيئاً ؟ فقالوا : والله لا نتركه حتى ننظر فى رحله ، فإنه أطيب انفسك وأنفسنا نفعل ، (٢) .

ويطوى القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشة وخزي ، بعد أن وجدت السقاية فى رحل بنيامين ، وبعد أن أقسموا بالله على براءتهم من تهمة السرقة .. يطوى القرآن كل ذلك ، ليترك للعقول أن تتصوره ...

ثم يعقب على ما حدث ببيان الحكمة التى من أجلها ألهم الله - تعالى - يوسف أن يفعل ما فعل من دس السقاية فى رحل أخيه ، ومن سؤال إخوته عن جزاء السارق فى شريعتهم فيقول ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان لياخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ... ،

و ، كدنا ، من السكيد وأصله الاحتيال والمكر . وهو صرف غيرك عما يريده بحيلة . وهو مذموم لأن تحرى به الفاعل الشر والقبیح ، ومحمود لأن تحرى به الفاعل الخير والجميل .

والمراد به هنا النوع المحمود . واللام فى « ليوسف » للتعليل .

والمراد بدين الملك : شريعته التى يسير عليها فى الحكم بين الناس . والمعنى : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده ، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه ، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية فى رحل أخيه ، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق فى شريعتهم ..

وما كان يوسف ليستطيع أن يحتجز أخاه معه ، لو نفذ شريعة ملك مصر ، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنه كما هو الحال في شريعة يعقوب ، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه .

وما كان يوسف ليفعل كل ذلك التدبير الحكيم في حال من الأحوال ، إلا في حال مشيئة الله ومعونته وإذنه بذلك ، فهو - سبحانه - الذي ألهمه أن يدس السقاية في رحل أخيه ؛ وهو - سبحانه - الذي ألهمه أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق في شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك في رحله منهم .

فالجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - على يوسف حيث ألهمه ما يوصله إلى مقصوده بأحكم أسلوب .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ، كذلك كدنا ليوسف ، أى : مثل ذلك ، السكيد العجيب وهو إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور ... دبرنا وصنفتنا من أجل يوسف ما يحصل به غرضه ...

وقوله ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، أى في حكمه وقضائه ، والكلام استئناف وتعليل لذلك السكيد . كانه قيل : لماذا فعل ذلك ؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع عنده في دين الملك في أمر السارق إلا بذلك السكيد ، لأن جزاء السارق في دينه أن يضاعف عليه الغرم ... دون أن يسترق كما هو الحال في شريعة يعقوب .

وقوله ، إلا أن يشاء الله ، أى : لم يكن يوسف ليتمكن من أخذ أخيه في حال من الأحوال ، إلا في حال مشيئته - تعالى - التى هى عبارة عن ذلك السكيد المذكور ... (١)

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ٢٩ ،

(٢ - سورة يوسف)

قالوا : وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا (١)

وقوله - سبحانه - : نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ، استئناف لبيان قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته وعظائمه .

أي : نرفع من نشاء رفعه من عبادنا إلى درجات عالية من العلوم والمعارف والعطايا والمواهب ... كما رفعنا درجات يوسف - عليه السلام -

و فوق كل ذي علم ، من أولئك المرفوعين : عليم ، يزيد عنهم في علمهم وفي مكانتهم عند الله - تعالى - ، فهو - سبحانه - العليم بأحوال عبادهم ، وبمنازلهم عنده ، وبأعلامهم درجة ومكانة .

وقال - سبحانه - : نرفع ، بصيغة الاستقبال ، الإشارات بأن ذلك سنة من سننه الإلهية التي لا تتخلف ولا تبدل ، وأن عطاءه - سبحانه - لا ينفاله إلا الذين تشملهم إرادته ومشيتته كما تقتضيه حكمته .

وجاءت كلمة : درجات ، بالتنكير ، الإشارة إلى عظمها وكثرتها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف في أعقاب ثبوت تهمة السرقة على أخيه بنيامين فقال - تعالى - : قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل

أي : قال إخوة يوسف - عليه السلام - بعد هذا الموقف المخرج لهم : إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك ، فقد سرق أخ له من قبل - وهو يوسف - ما يشبه ذلك .

وقوله هذا يدل على أن صنيعهم بيوسف وأخيه ما زال متمكنا من نفوسهم وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة في مرادهم بقولهم هذا ، ومن بين هذه الروايات ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في الآية : سرق يوسف - عليه السلام - صنما لجده وكان

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ٤٣ .

هذا الصنم من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه على الطريق ، فغير إخوته بذلك ، (١)

وقوله : فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكافا والله أعلم بما تصفون ، بيان لموقفه من مقالتهم ، والضمير في فأسرها ، يعود إلى تلك المقالة التي قالوها .

أى : سمع يوسف - عليه السلام - ما قاله لإخوته في حقه وفي حق شقيقه فسأه ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره بما قالوه وإنما رد عليهم بقوله : بل أنتم ، أيها الأخوة ، شر مكافا ، أى : موضعاً ومزلاً ممن نسبتهم إلى السرقة وهو برى ، لأنكم أنتم الذين كذبتهم على أبيكم وخذعتموه ، وقلتم له بعد أن ألقيتهم في الحب ، لقد أكله الذئب .

، والله ، - تعالى - ، أعلم ، مني ومنكم ، بما تصفون ، به غيركم من الأوصاف التي يخالفها الحق ، ولا يؤيدها الواقع .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوا ليوسف على سبيل الرجاء والاستعطاف لكي يطلق لهم أخاهم حتى يعود معهم إلى أبيهم فقال : قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحداً مكانه إذا نراك من المحسنين ، .

أى : قال إخوة يوسف له على سبيل الاستعطاف : يا أيها العزيز ، الذي أكرمنا وأحسن إلينا ، إن ، أخانا هذا الذي أخذته على سبيل الاسترقاق لمدة سنة ، قد ترلا من خلفه في بلادنا ، أبا شيخاً كبيراً ، متقدماً في السن ، وهذا الأب يحب هذا الابن حباً جما فإذا كان ولا بد من أن تأخذ واحداً على الاسترقاق بسبب هذه السرقة ، فخذ أحداً مكانه ، حتى لا تفجع أبانا فيه . وإننا ما طلبنا منك هذا الطلب ، إلا لأنفسنا نراك من المحسنين ، إلينا ، المكرمين لنا ، فسر على طريق هذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا بنيامين ليسافر معنا .

ولكن هذا الرجاء والتلطف والاستعطاف منهم ليوسف ، لم يجد شيئاً ، فقد رد عليهم في حزم وحسم بقوله : « قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . . . » ، ومعاذ ، منصوب بفعل محذوف .

أى : قال يوسف لهم : نعوذ بالله - تعالى - معاذاً ، من أن نأخذ في جريمة السرقة إلا الشخص الذى وجدنا صواع الملك عنده وهو بنيامين . وأتمم الذين أفتيتهم بأن السارق فى شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة ، فنحن نسير فى هذا الحكم تبعاً لشريعتكم .

ود وإننا إذا لظالمون ، اذا أخذنا شخصاً آخر سوى الذى وجدنا متاعنا عنده والظلم تأباه شريعتنا كما تأباه شريعتكم ، فأتروا الجدال فى هذا الأمر الذى لا ينفع معه الجدال ، لأننا لا نريد أن نكون ظالمين .

وهذا الرد الحاسم قطع يوسف حبال آمال اخوته فى العفو عن بنيامين أو فى أخذ أحدهم مكانه ، فانسحبوا من أمامه تعلموا السكابة ، وطفقوا يفكرون فى مصيرهم وفى موقفهم من أبيهم عند العودة إليه . . .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : « فلما استياسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف . . . »

وقوله « استياسوا » يشوياً تماماً فالسين والتاء للمبالغة :

« خلصوا » من الخلوص بمعنى الافتراد .

« نجياً » حال من فاعل خلصوا ، وهو مصدر أطلق على المتناجين فى السر على سبيل المبالغة .

والفاء فى قوله « فلما استياسوا منه . . . » معطوفة على محذوف يفهم من الكلام .

والتقدير لقد بذل إخوة يوسف أقصى جهودهم معه ليطلق لهم سراح أخيه بنيامين ، فلما يشوياً تماماً من الوصول إلى مطلوبهم ، افتردوا عن

الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه، وفيما سيقولونه لأبيهم عندما يعودون إليه ولا يجد معهم بنيامين . . .

وهذه الجلة الكريمة وهي قوله - تعالى - فلما استنساخوا منه خالصوا نجيا . . من أبلغ الجمل التي اشتمل عليها القرآن الكريم ، ومن العلماء الذين أشاروا إلى ذلك الامام الثعالبي في كتاب « الإيجاز والإعجاز » فقد قال : من أراد أن يعرف جوامع الكلم ، ويتنبه لفضل الاختصار وبخبط ببلاغة الإيجاز ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله - تعالى - في إخوة يوسف : فلما استنساخوا منه خالصوا نجيا ، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس ، وتخليهم الآراء ظهرا لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة ، معاني القصة الطويلة ، (١) وقوله - قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم . . . الخ ، بيان لما قاله لهم أحدهم خلال تناجيهم مع بعضهم في عزلة عن الناس .

ولم يذكر القرآن اسم كبيرهم ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض مهم ، وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد به « روبيل » ، لأنه أسنهم ، وذكر بعضهم أنه هو ذا ، لأنه كبيرهم في العقل . . .

أى : وحين إختلى إخوة يوسف بعضهم مع بعض لينظروا في أمرهم بعد أن احتجز عزيز مصر أخاهم بنيامين ، قال لهم كبيرهم : ألم تعلموا ، وأنتم تريدون الرجوع إلى أبيكم وليس معكم بنيامين ، أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، عند ما أرسله معكم ، بأن تحفظوا عليه ، وأن لا تعودوا إليه بدونه إلا أن يحاط بكم .
والمعلموا كذلك أنكم في الماضي قد فرطتم وقصرتم في شأن يوسف ، حيث عاهدتم أباكم على حفظه ، ثم أقيتم به في الجب .

والاستفهام في قوله : « ألم تعلموا ... » ، للتقرير . أى : لقد علمتم
علما يقينا بعدم أيكم عليكم بشأن بنيامين ، وعلمتم علما يقينا بخيانتكم لهم .
أيكم في شأن يوسف ، فباى وجه ستعودون إلى أيكم وليس معكم أخوكم
بنيامين ؟

قال الشوكاني : قوله « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله »
أى عهدا من الله - تعالى - بحفظ ابنه ورده إليه . ومعنى كونه من الله : أنه بإذنه .
وقوله « ومن قبل ما فرطتم في يوسف ، معطوف على ما قبله . والتقدير :
ألم تعلموا أن أباكم وتعلموا تفریطكم في يوسف ، فقوله « ومن قبل »
متعلق بتعلموا .

أى : تعلموا تفریطكم في يوسف من قبل . على أن ما صدرية (١) .

وقوله « فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى أو يحكم الله لي »
حكاية للقرار الذى اتخذه كبيرهم بالنسبة لنفسه .

أى : قال كبير إخوة يوسف لهم : لقد علمتم ماسبق أن قلته لكم ، فانظروا
في أمركم ، أما أنا « فلن أبرح الأرض » ، أى . فلن أفارق أرض مصر « حتى
يأذن لي أبى » ، بمفارقتها ، لأنه قد أخذ علينا العهد الذى تعلمونه بشأن
أخى بنيامين .

« أو يحكم الله لي » ، بالخروج منها وبمفارقتها على وجه لا يؤدي إلى نقض
الميثاق مع أبى « وهو » - سبحانه - « خير الحاكمين » ، لأنه لا يحكم إلا
بالحق والعدل .

ثم واصل كبيرهم حديثه معهم فقال : « ارجعوا » ، يا إخوتى « إلى أيكم »
يعقوب « فقولوا » له برفق وتلطف .

« يا أبانا إن ابنك » بنيامين « سرق » ، صواع الملك ، ووجد الصواع في

رحله وقولوا له أيضا ، إنما ما شهدنا إلا بما علمنا ، أى : وما شهدنا على أخينا بهذه الشهادة إلا على حسب علمنا وبقيننا بأنه سرق .

(وما كنا للغيب حافظين) أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيبسرق صواع الملك ، عندما أعطيناك عهدنا وموائمتنا بأن نأتيك به معنا إلا أن يحاط بنا .
وقولوا كذلك على سبيل زيادة التأكيد ، إن كنت فى شك من قولنا هذا فاسأل (القرية التى كنا فيها) والمراد بالقرية أهلها .

أى : فأرسل من تريد لإرساله إلى أهل القرية التى حصلت فيها حادثة السرقة فإنهم سيدكرون لك تفاصيلها .

قالوا ومرادهم بالقرية مدينة مصر التى حدث فيها ما حدث ، وعبروا عنها بالقرية لأنهم يقصدون مكانا معيننا منها ، وهو الذى حصل فيه التفتيش لرحالهم ، والمراجعة بينهم وبين عزيز مصر ومعاونيه .

وقوله : (والعير التى أقبنا فيها) معطوف على ما قبله .

أى : أسأل أهل القرية التى كنا فيها ، وأسأل (العير) أى : قوافل التجارة (التي كنا فيها) عند ذهابنا وإيابنا فإن أصحاب هذه القوافل يعلمون ما حدث من ابنك بنيامين .

وقوله (وإنا لصادقون) أى : وإنا لصادقون فى كل ما أخبرناك به ، فكن واثقا من صدقنا .

وقد ختم كبيرهم كلامه بهذه الجملة ، زيادة فى تأكيد صدقهم ، لأن ماضيهم معه يبعث على الريبة والشك ، فهم الذين قالوا له قبل ذلك فى شأن يوسف : (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) ثم ألقوا به فى الجب ، (وجاؤا أباهم عشاء يبكون ...) وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت بأسلوب حافل بالإثارة والمحاورة ، والأخذ والرد ، والترغيب والترهيب ...
مادار بين يوسف وإخوته عندما قدموا إليه للمرة الثانية ومعهم شقيقه (بنيامين) .

فماذا كان بعد ذلك ؟ لقد كان بعد ذلك أن عاد الإخوة إلى أبيهم وتركوا بمصر كبيرهم وأخاهم بنيامين ، ويطوى القرآن الحكيم - على عادته في هذه السورة الكريمة - أثر ذلك على قلب أبيهم المفجوع ، إلا أنه يسوق لنا رده عليهم ، الذي يدل على كمال إيمانه ، وسعة آماله في رحمة الله - تعالى - فيقول :
 قال بل سئلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، عسى الله أن ياتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم (٨٣) وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم (٨٤) قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حمرنا ، أو تكون من الهالكين (٨٥) قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون (٨٦) يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون (٧٨) .

أى : قال ، يعقوب لبنيه ، الذين حضروا إليه من رحلتهم ، فأخبروه بما هيح أحزانه

قال لهم : (بل سئلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) أى : ليس الأمر كما تدعون ، ولكن أنفسكم هى التى زينت لكم أمراً أنتم أردتموه ، ففسهروا على ما قلتم صبر جميل ، أى لا جزع معه ، ولا شكوى إلا لله - تعالى -

قال ابن كثير : قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب (بل سئلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) .

قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى ، اتهمهم ، وظن أن ما فعلوه ببنيامين يشبه ما فعلوه بيوسف فقال : بل سئلت لكم أنفسكم أمراً

وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح قوله (بل سئلت لكم أنفسكم أمراً)

والخلاصة أن الذي حمل يعقوب - عليه السلام - على هذا القول لهم ،
المفيد لتشككه في صدق ما أثبتوه لأنفسهم من البراءة ، هو ما ضيغهم معه ، فإنهم
قد سبق لهم أن فجعوه في يوسف بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .

ولسكن يعقوب هنا أضاف إلى هذه الجملة جملة أخرى تدل على قوة أمله
في رحمة الله ، وفي رجائه الذي لا يخيب في أن يجمع تمله بأبنائه جميعا فقال
- عليه السلام - (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم) .
أى : عسى الله - تعالى - أن يجمعنى بأولادى جميعا - يوسف وبنيامين
ورويى - لى الذى تخلف عنهم فى مصر - ، إنه - سبحانه - هو العليم بحالى ،
الحكيم فى كل ما يفعله ويقضى به .

وهذا القول من يعقوب - عليه السلام - يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه ،
وحسن صلته بالله - تعالى - ، وقوة رجائه فى كرمه وعطفه ولطفه - سبحانه -
وكأنه بهذا القول يرى بنور الله الذى غرسه فى قلبه ، مالا يراه غيره
بحواسه وجوارحه .

ثم يصور - سبحانه - ما اعتري يعقوب من أحزان على يوسف ، جدها
فراق بنيامين له فقال - تعالى - « وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ،
وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » .

وقوله . يا أسفا ، من الأسف وهو أشد الحزن والتحسر على ما فات من
أحداث . يقال : أسف فلان على كذا يا أسفا ، إذا حزن حزنا شديدا ..
وأنه بدل من ياء المتكلم للتخفيف والأصل يا أسفى .
وكظيم بمعنى مكظوم ، وهو الممتلىء بالحزن ولكنه يخفيه من الناس ولا
يبديه لهم .

ومنه قوله - تعالى - (والمكظمين الغيظ) أى : المخفين له . ما خوذ
من كظم فلان السقاء : إذا سده على ما بداخله .

والمعنى : وبعد أن استمع يعقوب إلى ما قاله له أبنائه ، ورد عليهم ...
لإنتابته الأحزان والهموم ، وتجددت في قلبه الشجون ... فتركهم واعتزل
بجلسهم وقال :

يا أسفا على يوسف ، أى : يا حزنى الشديد على يوسف ، أقبل فهذا
أوان إقبالك .

(وابتضت) عينا يعقوب من شدة الحزن) على يوسف وأخيه حتى
ضعف بصره ، حيث انقلب سواد عينيه يماضا من كثرة البكاء .

فهو كظيم ، أى : ممتلىء حزنا على فراق يوسف له ، إلا أنه كانم
لهذا الحزن لا يروح به لغيره من الناس .

قالوا : وإنما تأسف على يوسف دون أخويه - بنيامين وروبيرل -
مع أن الرزء الأحدث أشد على النفس ...

لأن الرزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا والخطوب
ولأن حبه ليوسف كان حبا خاصا لا يؤثر فيه مرور الأعوام ...

ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة السابقة عليها ، ونهيج
أحزانها ، وقد عبر عن هذا المعنى متمم بن نويرة فى رثائه لأخيه مالك فقال :

لقد لامنى عند القبور على البسكا رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيت له لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له : إن الشجى يبعث الشجى قدعنى ، فهذا كله قبر مالك

وقال صاحب الكشاف . فإن قلت : كيف جاز لنبى الله يعقوب أن يبلغ به
الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ...

ولقد بكى النبى - صلى الله عليه وسلم - على ولده إبراهيم وقال : إن العين
تدمع ، والقلب يحزن : ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، ولما بفراقك يا إبراهيم
لحزونون .

ولنما الجزع المذموم ما يقع من الجملة من الصياح والنياحة ، واطم "صدور
والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولده ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله
جعل الحزن عارا على يعقوب ، (١) .

ثم يحكى القرآن ما قاله أبناء يعقوب له ، وقد رأوه على هذه الصورة من الهم
والحزن فيقول : د قالوا تا الله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون
من الهالكين .

قال الشوكاني : قوله د تفتأ أى : لا تفتأ ، فحذف حرف النفي لأن من اللبس .
قال الكسائي : فتأت وفتئت أفعل كذا : أى ما زلت أفعل كذا .

وقال الفراء : إن لامضمرة . أى لا تفتأ ومنه قول الشاعر :
فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأرصالي
أى : د لا أبرح قاعدا ... (٢)

و د حرضا ، مصدر حرض . كتعبد والحرص : الإشراف على الهلاك
من شدة الحزن أو المرض أو غيرهما .

والمعنى : قال أبناء يعقوب له بعد أن سمعوه وهو يتحسر على فراق
يوسف له : تا الله - يا أبانا - ما يزال تذكر يوسف بهذا الحنين الجارف ،
والحزن المضي ، د حتى تكون حرضا ، أى : مشرفا على الموت لطول مرضك .

د أو تكون من الهالكين ، المفارقين لهذه الدنيا .

وهنا يرد عليهم الأب الذى يشعر بغير ما يشعرون به من ألم وأمل ...
بقوله : د إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون .

و د البث ، ما ينزل بالإنسان من مصائب يعظم حزن صاحبها بسببها . حتى

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ٤٨ .

أنه لا يستطيع إخفاء هذا الحزن ، وأصله التفريق وإثارة الشئ . ومنه قولهم :
بنت الريح التراب إذا فرقتة .

قالوا : والإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان حزنا ، وإذا
لم يقدر على كتمه كان بها ...

والمعنى : قال يعقوب لأولاده الذين لاموه على شدة حزنه على يوسف :
لنما أشكو د بى ، أى : همى الذى انطوى عليه صدرى د إلى الله ، - تعالى -
وحده ، لا إلى غيره ، فهو العليم بحالى ، وهو القادر على تفريج كربى ، فاطر كونى
وشأنى مع ربى وخالقى . فإنى د أعلم من الله ، أى : من لطفه وإحسانه ووثوبه
على الصبر على المصيبة د مالا تعلمون ، أتم ، وإنى لأرجو أن يرحمنى وأن يطفى
بى ، وأن يجمع شملى بمن فارقتى من أولادى ، فإن حسن ظنى به - سبحانه - عظيم .
قال صاحب الظلال : وفى هذه الكلمات - التى حكاهما القرآن عن يعقوب -
عليه السلام - ، يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصل ، كما
تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولآلائها الباهر .

إن هذا الواقع الظاهر المينس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى
يقطع الرجاء من حياته فضلا على عودته إلى أبيه ... إن هذا كله لا يؤثر شيئا
فى شعور الرجل الصالح بربه ، فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه مالا يعلمه
هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة

وهذه قيمة الإيمان بالله ...

إن هذه الكلمات د أعلم من الله مالا تعلمون ، تجلوهذه الحقيقة بما لا تملك
كلباتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعنى
هذه الكلمات فى نفس العبد الصالح يعقوب ...

والقلب الذى ذاق هذا المذاق ، لا تبلغ الشدائد منه - مهما بلغت - إلا أن
يتعمق المس والمشاهدة والمذاق ... (١) .

ثم يمضى يعقوب - عليه السلام - في رده على أولاده ، فيأمرهم أن يواصلوا بحثهم عن يوسف وأخيه ، وأن لا يقنطوا من رحمة الله فيقول : يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

والتحسس : هو طلب الشيء بطريق الحواس بدقة وحكمة وصبر على البحث .
أى : قال يعقوب لأبنائه : يا بني اذهبوا ، إلى أرض مصر وإلى أى مكان تتوقعون فيه وجود يوسف وأخيه فتحسسوا ، أمرهما ، وتخبروا خبرهما ، وتعرفوا نياهما بدون كلل أو ملل .

وفي التعبير بقوله فتحسسوا ، إشارة إلى أمره لهم بالبحث الجاد الحكيم المتأنى ، ولا تيأسوا من روح الله ، أى : ولا تقنطوا من فرج الله وسعة رحمته وأصل معنى الروح التنفس : يقال : أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعير لحلول الفرج .

وكلمة روح ، - بفتح الراء - أدل على هذا المعنى ، لما فيها من ظل الاسترواح من الكرب الخائق بما تنفسه الأرواح من رحمة الله .

وقوله : إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، تعليل لحضهم على التحسس أى : لا تقصروا في البحث عن يوسف وأخيه ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فإنه ، لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، لعدم علمهم بالله - تعالى - وبصفاته وبمظيم قدرته ، وبواسع رحمته ...

أما المؤمنون فإنهم لا ييأسون من فرج الله أبداً ، حتى ولو أحاطت بهم الكروب ، واشتدت عليهم المصائب

واستجاب الأبناء لنصيحة أبيهم ، فأعدوا عدتهم للرحيل إلى مصر للمرة الثالثة ، ثم ساروا في طريقهم حتى دخلوها ، والتقوا بعزير مصر الذى احتجز أخاه بنيامين ، وتحسكى السورة الكريمة ما دار بينهم وبينه فتقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ، وَجِئْنَا

ببضاعةٍ مُزجاةٍ فأوفِ لنا السَّكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي
الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ
جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَأَتَيْتَكَ لِأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي
قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاهَهُ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)
اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ، وَأَثُونِي بِأَهْلِكُمْ
أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا
أَنْ تَفْتَدُون (٩٤) قَالُوا تَاهَهُ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ
جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ
مَنْ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا
خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨).

وقوله - تعالى - ولما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر
وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا السكيل وتصدق علينا ، حكاية لما قاله
لإخوة يوسف له ، بعد أن امثلوا أمر أبيهم ، فخرجوا إلى مصر للمرة الثالثة ،
ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، وليشتروا من غريزها ما هم في حاجة إليه من طعام .
والبضاعة : هي القطعة من المال ، يقصد بها شراء شيء .

والمزجاة : هي القليلة الرديئة التي ينصرف عنها التجار لإهمالها .
قالوا : وكانت بضاعتهم دراهم يورق لا تؤخذ إلا بوضيعة ، وقيل غير ذلك .
وأصل الإزجاء : السوق والدفع قليلا قليلا ، ومنه قوله - تعالى - ألم تر
أن الله يزجي سحابا

أى : يرسله رويدا رويدا ...

وسميت البضاعة الرديئة القليلة مزجاة ، لأنها ترد وتدفع ولا يقبلها التجار إلا بأبخس الأثمان .

والمعنى : وقال لإخوة يوسف له بأدب واستعطاف : بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة : يا أيها العزيز ، أى : الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة في الرزق .
« مسنا وأهلنا الضر ، أى : أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر والجذب والهزل من شدة الجوع .

« وجئنا ببضاعة مزجاة ، أى : وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار ، إعمالا لها ، واحتقارا لشأنها .

ولأنما قالوا له ذلك : استدرا لعطفة ، وتحريكا لمروءته وسخائه ، قبل أن يخبروه بمطلبهم الذي حكاه القرآن في قوله :

(فأوف لنا الكيل وتصدق علينا) أى : هذا هو حالنا شرحناه لك ، وهو يدعو إلى الشفقة والرحمة ، ومادام أمرنا كذلك ، فأنتم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئا ، وتصدق علينا فوق حقنا بما أفت أهل له من كرم ورحمة (إن الله يجزي المتصدقين) على غيرهم جزاء كريما حسنا .

ويبدو أن يوسف - عليه السلام - قد تأثر بما أصابهم من ضر وضيق حال ، تأثرا جعله لا يستطيع أن يخفى حقيقة عنهم أكثر من ذلك ، فبادرهم بقوله : (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أتتم جاهلون) .

أى : قال لهم يوسف - عليه السلام - على سبيل التعريض بهم ، والتذكير بأخطائهم (هل علمتم) ما فعلتموه بيوسف وأخيه من أذى وعدوان عليهما ، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى والعدوان .

قالوا : وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه . حتى لسكانه يلتمس لهم العذر ، لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان في وقت جهلهم وقصور عقولهم ، وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه ...

وقيل : نفي عنهم العلم وأثبت لهم الجهل ، لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم .
والأول أولى وأقرب إلى ما يدل عليه سياق الآيات بعد ذلك : من عفوهم ، وطلب المغفرة لهم .

وهنا يعود إلى الإخوة صوابهم ، وتلوح لهم سمات أخيبهم يوسف ،
فولون له في دهشة وتعجب (أأنك لأنت يوسف) ؟ .

أى : أأنك لأنت أخونا يوسف الذى أكرمنا والذى فارقناه وهو
غير فأصبح الآن عزيز مصر ، والمتصرف فى شئوننا ؟ .

فرد عليهم بقوله (أنا يوسف) الذى يتحدثون عنه ، والذى فعلتم معه
فعلتم

(وهذا أخى بنيامين) الذى ألهمنى الله الفعل الذى عن طريقه احتجزته
دى ، ولم أرسله معكم ...

(قدم من الله) - تعالى - (علينا) حيث جمعنا بعد فراق طويل ، وبدل
توالنا من عسر إلى يسر ، ومن ضيق إلى فرج ...

ثم علل ذلك بما حكاه القرآن عنه فى قوله (إنه من يتق ويصبر فإن الله
يضيع أجر المحسنين) .

أى : إن من شأن الإنسان الذى يتقى الله - تعالى - ويصون نفسه عن
مالا يرضاه ، ويصبر على قضائه وقدره ، فإنه - تعالى - يرحمه برحمته ،
بكرمه بكرمه ، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وتلك
نته - سبحانه - التى لا تخاف ...

وهنا يتجسد فى أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه فى الماضى ، فينتابهم
نزى والحنين ، حيث قابل إساءتهم إلى به بالإحسان عليهم ، فقالوا له فى
تعطاف وتذلل : (تا الله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين) أى :
سم بالله - تعالى - لقد اختارك الله - تعالى - لرسالته ، وفضلك علينا
تقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة .

أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك ، ومتعمدين لما ارتكبناه فى حقك

من جرائمهم ، ولذلك أعزك الله - تعالى - وأذلنا ، وأغناك وأفقرنا ، ونرجو
منك الصفح والعفو ..

فرد عليهم يوسف - عليه السلام - بقوله : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر
الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

والتثريب : التعيير والتوبيخ والتأنيب . وأصله كما يقول الألوسي : من
الثوب ، وهو الشحم الرقيق في الجوف وعلى المكرش ... فاستعير للتأنيب
الذي يمرق الأعراض ويذهب بهاء الوجه ، لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال ،
كما أنه بالتأنيب واللوم تظهر العيوب . فالجامع بينهما طريان التقص بعد الكمال ،
أى : قال يوسف لإخوته على سبيل الصفح والعفو يا إخوتى : لا لوم ولا
تأنيب ولا تعيير عليكم اليوم ، فقد عفوت عما صدر منكم فى حقى وفى حق أخى
من أخطاء وآثام وأرجو الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب
وهو - سبحانه - أرحم الراحمين بعباده .

وقوله (لا تثريب) اسم لا النافية للجنس ، و (عليكم) متعلق بمحذوف
خبر لا ، و (اليوم) متعلق بذلك الخبر المحذوف .

أى : لا تقريع ولا تأنيب ثابت أو مستقر عليكم اليوم .
وليس التقييد باليوم لإفادة أن التقريع ثابت فى غيره ، بل المراد نفيه عنهم
فى كل ما مضى من الزمان ، لأن الإنسان إذا لم يوبخ صاحبه فى أول لقاء معه
على أخطائه فلأن يترك ذلك بعد أول لقاء أولى .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - من الحديث عن الصفح عنهم إلى
الحديث عن أبيه الذى ابيضت عيناه عليه من الحزن فقال :
(اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرى وأتوني بأهلكم
أجمعين) .

أى : اذهبوا - يا إخوتى - بقميصى هذا (فألقوه على وجه أبى)

(١٠ - سورة يوسف)

الذى طال حزنه بسبب فراقه له (يأت بصيرا) أى يرتد إليه كامل بصره ،
بعد أن ضعف من شدة الحزن .

(وأنوفى) معه إلى هنا ومعكم أهلكم جميعا من رجال ونساء وأطفال .
وقول يوسف هذا إنما هو بوحى من الله - تعالى - فهو - سبحانه -
الذى ألهمه أن إلقاء قيصة على وجه أبيه يؤدى إلى ارتداد بصره إليه كاملا ،
وهذا من باب خرق العادة بالنسبة لهذين النبیین المكریمین .

واستجاب الإخوة لتوجيه يوسف ، فأخذوا قيصة وعادوا إلى أوطانهم
ويصرر القرآن ما حدث فيقول : (ولما فصلت العير قال أبوه لى لأجد ریح
يوسف لولا أن تفندون) .

و (فصلت العير) أى خرجت من مكان إلى مكان آخر . يقال : فصل
فلان من بلدة كمذا فصولا ، إذا جاوز حدودها إلى حدود بلدة أخرى .

و (تفندون) من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم فى السن
والمعنى : وحين غادرت الإبل التى تحمل إخوة يوسف حدود مصر ،
وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب وبنوه ، قال يعقوب - عليه
السلام - لمن كان جالسا معه من أهله وأقاربه ، استمعوا لى (لى لأجد
ريح يوسف) .

أى : رائحته التى تدل عليه ، وتشير إلى قرب لقائى به .

و (لولا) أن تنسبونى إلى الفند وضعف العقل لصدقتمونى فيما قلت ،
أو لولا أن تنسبونى إلى ذلك لقلت لكم لى أشعر أن لقائى بـ يوسف قد
أقرب وقته وحان زمانه :

جواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه .

وقد أشم الله - تعالى - يعقوب - عليه السلام ، ما عبق من القميص من
رائحة يوسف من مسيرة أيام ، وهى معجزة ظاهرة له - عليه الصلاة والسلام -
وقال الإمام مالك - رحمه الله - أوصل الله - تعالى - ریح قميص يوسف
ليعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه .

ولكن المحيطين بيعقوب الذين قال لهم هذا القول ، لم يسموا ما شبه ، ولم يجدوا ما وجدته ، فردوا عليه بقولهم : (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) .
 - قالوا له على سبيل التسلية : إنك يا يعقوب ما زلت غارقا في خطئك القديم الذي لا تريد أن يفارقك ، وهو حبك ليوسف وأملك في لقائه والإكثار من ذكره ، وتحقيق . يا وجدته يعقوب من رائحة يوسف ، وحل أوان المفاجأة التي حكاها القرآن في قوله (ولما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم لاني أعلم من الله ما لا تعلمون) .

أى : وحين اقترب أبناء يعقوب من دار أبيهم ، تقدم البشير الذي يحمل قميص يوسف إلى يعقوب ، فألقى القميص على وجهه فماد إلى يعقوب بصره كأن لم يكن به ضعف أو مرض من قبل ذلك .

وهذه معجزة اكرم الله - تعالى - بها نبيه يعقوب - عليه السلام - حيث رد إليه بصره بسبب إلقاء قميص يوسف على وجهه .

وهنا قال يعقوب لأبنائه ولمن أنكر عليه قوله (لاني لأجد ريح يوسف) (ألم أقل) قبل ذلك (لاني أعلم من الله) أى : من رحمته وفضله وإحسانه (مالا تعلمون) أتم .

وهنا قال الأبناء لأبيهم في تذلل واستعطاف : (يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) .

أى : تضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لنا ما فرط منا من ذنوب في حقك وفي حق أخويننا يوسف وبنيامين .

(إنا كنا خاطئين) في حقك وفي حق أخويننا ، ومن شأن الكريم أن يصفح ويعفو عن اعتراف له بالخطأ .

فكان رد أبيهم عليهم أن قال لهم (سوف أستغفر لكم ربى) أى : سوف أتضرع إلى ربى لكي يغفر لكم ذنوبكم .

(إنه) - سبحانه - (هو الغفور) أى الكثير المغفرة (الرحيم) أى الكثير الرحمة لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

وهكذا صورت لنا السورة الكريمة ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه في هذا اللقاء المشير الخافل بالمفاجآت والشارات .
ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت وإشارات أخرى تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحقق معها تأويل يعقوب لها فقد هاجر يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك في نهاية القصة فيقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) .

وقوله - سبحانه - (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) معطوف على كلام محذوف والتقدير :

استجاب إخوة يوسف لقوله لهم : (اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيرا ، وأتوني بأهلكم أجمعين) فأتوه بأهلهم أجمعين ، حيث رحلوا جميعا من بلادهم إلى مصر ومعهم أبوم ، فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف ، ضم إليه أبويه وعانقهما عنقا حارا .

وقال للجميع (ادخلوا) بلاد (مصر إن شاء الله آمنين) من الجموع والخوف .

وقد ذكر المفسرون هنا كلاما يدل على أن يوسف - عليه السلام - وحاشيته

ووجهاء مصر ، عندما بلغهم قدوم يعقوب بأسرته إلى مصر ، خرجوا جميعا لاستقبالهم كما ذكرنا أن المراد بأبويه : أبوه وخالته ، لأن أمه ماتت وهو صغير .

إلا أن ابن كثير قال : قال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ، وأنه لم يقيم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها) ثم قال : وهذا الذي كره ابن جرير ، هو الذي يدل عليه السياق (١) . والمراد بدخول مصر : الاستقرار بها ، والسكن في ربوعها . قالوا : وكان عدد أفراد أسرة يعقوب الذين حضروا معه ليقیموا في مصر ما بين الثمانين والقسامين .

والمراد بالعرش في قوله (ورفع أبويه على العرش) السرير الذي يجلس عليه أي : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذي يجلس عليه ، تكريما لها . وإعلاء من شأنهما .

(وخرؤا له سجدا) أي : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان ذلك جائزا في شريعتهم على أنه لون من التحية ، وإيس المقصود به السجود الشرعي لأنه لا يكون إلا لله - تعالى - .

(وقال) يوسف متحدثا بنعمة الله (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ...)

أي : وقال يوسف لأبيه : هذا السجود الذي سجدتموه لي الآن . هو تفسير رؤياي التي رأيتها في صغري . فقد جعل ربي هذه الرؤيا حقا ، وأراني تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها هذا الزمن الطويل .

قالوا : وكان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة . والمراد بهذه الرؤيا ما أشار إليه القرآن في مطلع هذه السورة في قوله (يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٩١ .

ثم قال يوسف لأبيه أيضا : (وقد أحسن بي) ربى - عز وجل - (إذ أخرجنى من السجن) بعد أن مكثت بين جدرانها بضع سنين .
وعدى فعل الإحسان بالباء مع أن الأصل فيه أن يتعدى إلى ، لتضمنه معنى اللطف ولم يذكر نعمة إخراجهم من الحبس ، حتى لا يجرح شعور إخوته الذين سبق أن قال لهم : لا تثرى عليكم اليوم يغفر الله لكم .
وقوله : وجاء بكم من البدو ، مطوف على ما قبله تعدادا لنعم الله - تعالى -
أى : وقد أحسن بي ربى حيث أخرجنى من السجن ، وأحسن بي أيضا حيث يسر لكم أموركم . وجمعنى بكم فى مصر ، بعد أن كنتم مقيمين فى البادية فى أرض كنعان بفلسطين .

وقوله : من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى ، أى جمعنى بكم من بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث حلمهم على أن يلقوا بى فى الحبس .
وأصل : نزع ، من النزع بمعنى النخس والدفع . يقال نزع الراكب دابته إذا نخصها ودفعها لتسرع فى سيرها .

رأسند النزع إلى الشيطان ، لأنه هو الموسوس به ، والدافع إليه ، ولأن فى ذلك مترا على إخوته وتادبا معهم .
وقوله : إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ، تذييل قصد به الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله .

أى : إن ربى وخالقى ، لطيف التدبير لما يشاء تدبيره من أمور عباده ، رفيق بهم فى جميع شئونهم من حيث لا يعلمون .

إنه - سبحانه - هو العليم بأحوال خلقه علما تاما ، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله ثم ختم يوسف - عليه السلام - ثناءه على الله - تعالى - بهذا الدعاء الذى حكاه القرآن عنه فى قوله : رب قد آتيتنى من الملك ، أى : يارب قد عطيتنى شيئا عظيما من الملك والسلطان بفضلك وكرمك .

(وعلمتنى) - أيضا - شيئا كثيرا (من تأويل الأحاديث) أى : من تفسيرها وتعبيرها تعبيرا صادقا بتوفيقك وإحسانك .

(فاطر السموات والأرض) أى : خالقهما على غير مثال سابق . وهو منصوب على النداء بحرف مقدر أى : يا فاطر السموات والأرض .
 (أنت ولي) وناصرى ومعينى (فى الدنيا والآخرة) .
 (توفنى) عندما يدر كنى أجلى على الإسلام ، وأبقى (مسلماً) مدة حياتى .
 (وألحقنى) فى قبرى ويوم الحساب (بالصالحين) من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وبهذا الدعاء الجامع الذى توجه به يوسف إلى به - تعالى - يختم القرآن الكريم قصة يوسف مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشرهم والتقى بهم وهو دعاء يدل على أن يوسف - عليه السلام - لم يشغله الجاه والسلطان ولم يشغله لقاءه عن طاعة ربه ، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب . .

وهذا هو شأن المصطفين الأخيار الذين نسال الله - تعالى - أن يحشرنا معهم ، ويلحقنا بهم ، ويوفقنا للسير على نهجهم ...

ثم يحتم الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وبما يدخل التسليم على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وبما يفتح له باب الأمل فى النصر على أعدائه ... فيقول :

ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيُّنَ مِنْ آيَةٍ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يَأْمُرُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ

سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) .
واسم الإشارة في قوله - سبحانه - (ذلك من أنباء الغيب نوحيها إليك) .

يعود على ما ذكره الله - تعالى - في هذه السورة من قصص يتعلق بيوسف وإخوته وأبيه وغيرهم ، أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - في هذه السورة ، وما قصصناه عليك في غيرها (من أنباء الغيب) أى : من الأخبار الغيبية التى لا يعلمها علما تاما شاملا إلا الله - تعالى - وحده .
ونحن (فوحيه إليك) ونعلمك به لما فيه من العبر والعظات .

وقوله : (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) مسوق للتدليل على أن هذا القصص من أنباء الغيب الموحاة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أى : وما يشهد بأن هذا الذى قصصناه عليك في هذه السورة من أنباء الغيب ، أنك - أيها الرسول الكريم - ما كنت حاضرا مع إخوة يوسف ، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به ، ثم استقر رأيهم على القائه فى الحبس ، وما كنت حاضرا أيضا وقت أن مكرت امرأة العزيز بيوسف ، وما كنت مشاهدا لتلك الأحداث المتنوعة التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ، ولما كنا أخبرناك بكل ذلك لتقرأه على الناس ، ولينتفعوا بما فيه من حكم وأحكام ، وعبر وعظات .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - في خلال قصة نوح - عليه السلام - .
تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين (١) .

وقوله - تعالى - في خلال قصة موسى - عليه السلام - (وما كنت بجانب
الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) (٢) .

وقوله - تعالى - في خلال حديثه عن مريم (ذلك من أنباء الغيب نوحيه
إليك ، وما كنت لديهم إذ ياقون أقلامهم أيهم يكفل مريم . وما كنت لديهم
إذ يختصمون) (٣) .

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى
لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن معاصر المن جاء القرآن بقصصهم ، ولم يطلع
على كتاب فيه خبرهم ، فلم يبق لعلمه - صلى الله عليه وسلم - بذلك طريق إلا
طريق الوحي .

ثم ساق - سبحانه - ما يبعث التسلية والتهزية في قلب النبي - صلى الله
عليه وسلم - فقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) .

أى : لقد جئت - أيها الرسول - للناس بدين الفطرة ، الذي يرتاح له
النفوس وتتقبله القلوب بسرور وانشراح ، ولكن أكثر الناس قد استحوذ
عليهم الشيطان ، فسخ نفوسهم وقلوبهم ، فصاروا مع حرصك على إيمانهم ،
ومع حرصك على دعوتهم إلى الحق على بصيرة ، لا يؤمنون بك ، ولا
يستجيبون لدعوتك ، لاستيلاء المطامع والشهوات والأحقاد على نفوسهم .

وفي التعبير بقوله - سبحانه - (وما أكثر الناس . . .) إشعار بأن هناك
قلة من الناس قد استجابت بدون تردد لدعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - ،
فدخلت في الدين الحق ، عن طواعية واختيار .

(١) سورة هود الآية ٤٩ (٢) سورة القصص الآية ٤٦

(٣) سورة آل عمران الآية ٤٤

وقوله (ولو حرصت) جملة معترضة لبيان أنه مهما بالغ النبي - صلى الله عليه وسلم - في كشف الحق ، فإنهم سادرون في ضلالهم وكفرهم ، إذ الحرص طلب الشيء باجتهاد قال الألوسي ما ملخصه : سألت قريش واليهود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قصة يوسف ، فنزلت مشروحة شرحاً وافياً ، فأمل النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكون ذلك سبباً في إسلامهم ، فلما لم يفعلوا حزن - صلى الله عليه وسلم - فمراه الله تعالى بذلك (١) .

وقوله (وما نسألكم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين) زيادة في تسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي إعلاء شأنه .

أى أنك - أيها الرسول الكريم - ما نسألكم على هذا القرآن الذي نتلوه عليهم لهدايتهم وسعادتهم من أجر ولو كان زهيداً ضئيلاً ، كما يفعل غيرك من السكمان والأخبار والرهبان . . .

وانما تفعل ما تفعل ابتغاء رضا الله - تعالى - ونشر دينه .

وقوله ((إن هو إلا ذكر للعالمين)) أى : ما هذا القرآن الذي تقرأه عليهم إلا تذكير وعظة وهداية للعالمين كافة ، لا يختص به قوم دون قوم ، ولا جنس دون جنس .

قالوا : وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها ، لأن التذكير العام لكل الناس ، يتنافى مع أخذ الأجرة من البعض دون البعض ، وإنما تنأى الأجرة إذا كانت الدعوة خاصة وليست عامة . ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين تطالعهم الدلائل والبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ولكنهم في عصى عنها فقال : (وكأين من آية يرون عليها وهم عنها معرضون) (و (كأين) كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى الإستفهامية المنوطة ، ثم تنوسى معنى جزئيتها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير .

والمراد بالآية هنا : العبرة والعظة الدالة على وحدانية الله وقدرته ، يمر بها

هؤلاء المشركون فلا يلتفتون اليها ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يتنبهون بها ، لأن بصائرهم قد انطمست بسبب استحواذ الأهواء والشهوات والعناد عليها .

قال ابن كثير : ما ملخصه يخبر - تعالى - في هذه الآية عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده ، بما خلقه - سبحانه - في السموات من كواكب زاهرات ، وسيارات وأفلاك ... وفي الأرض من حدائق وجنات ، وجبال راسيات ، ونحار زخرات ، وحيوانات ونبات ... فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية ... (١)

ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب غفلتهم وجهالتهم ، لا يؤمنون بإيماننا صحيحاً فقال - تعالى - ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .
أي : وما يؤمن أكثر هؤلاء الضالين بالله في إقرارهم بوجوده ، وفي اعترافهم بأنه هو الخالق ، إلا وهم مشركون به في عقيدتهم وفي عبادتهم وفي تصرفاتهم ، فإنهم مع إعترافيهم بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله لكنهم مع ذلك كانوا يتفربون إلى أصنامهم بالعبادة ويقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)

والآية تشمل كل شرك سواء أكان ظاهراً أم خفياً ، كبيراً أم صغيراً وقد ساق ابن كثير هنا جملة من الأحاديث في هذا المعنى ، كلها تنهى عن الشرك أيما كان لونه منها قوله - صلى الله عليه وسلم - عندما سئل أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك) ومنها قوله - صلى الله عليه وسلم - (إن الرقى والتهاشم والتولة شرك)

ومنها قوله - صلى الله عليه وسلم - ﴿ إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء ﴾

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤١ طبعة دار الشعب .

ومنها قوله - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - :
يقول الله - تعالى - أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي
غيري ، تركته وشركه ﴿ ١ ﴾

فآلاية الكريمة تنهى عن كل شرك ، وتدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة
لله رب العالمين .

ثم هددهم - سبحانه - بحلول قارعة بهم تدمرهم تدميراً فقال - تعالى - :
(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم
لا يشعرون) .

والغاشية : كل ما يغطى الشيء ويستره ، والمراد بها : ما يغشاهم ويغمرهم
من العذاب . والاستفهام للتوبيخ والتقريع .
والمعنى : أفأمن هؤلاء الضالون ، أن يأتيهم عذاب من الله - تعالى - يغشاهم
ويغمرهم ويشمل كل أجزائهم .

وأمنوا أن تأتيهم الساعة فجأة دون أن يسبقها ما يدل عليها ، بحيث
لا يشعرون بإتيانها إلا عند قيامها .

إن كانوا قد آمنوا كل ذلك ، فهم في غمرة ساهون . وفي الكفر والظلمان
غارقون ، فإنه (لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يسير في طريقه الذي
رسمه له ، وأن يدعو الناس إليه فقال : (قل هذه سبيلي ، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى
بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي . . .) والبصيرة : المعرفة التي يتميز بها الحق
من الباطل .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس هذه طريقي وسبيلي واحدة
مستقيمة لا دوج فيها ولا شبهة ، وهى أنى أدعو إلى إخلاص العبادة لله

(١) راجع تفسير ابن كثير ، ص ٣٤١ طبعة دار الشعب .

- تعالى - وحده ، ببصرة مستنيرة ، ووجه واضحة ، وكذلك أتباعي يفعلون ذلك وإن تكفر عن دعوتنا هذه مهما إعترضتنا العقبات ،
واسم الإشارة (هذه) مبتدأ . و (سبيلي) خبر ، وجملة (أدعوا إلى الله على بصيرة ...) حالية ، وقد جرى بها على سبيل التفسير للطريقة التي افتتجها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في دعوته .

وقوله ﴿ وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ تنزيه لله - تعالى - عن كل مالا يليق به على أبلغ وجه .

أى : وأنزه الله .. تعالى .. تنزيها كاملا عن الشرك والشركاء ، وما أنامن المشركين به في عبادته أو طاعته في أى وقت من الأوقات .

ثم بين .. سبحانه - أن رسالته .. صلى الله عليه وسلم - ليست بدعا من بين الرسالات السماوية ، وإنما قد سبقه إلى ذلك رجال يشبهونه في الدعوة إلى الله ، فقال .. تعالى .. (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى)

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ أوامرنا ونواهيها إلى الناس ، إلا رجالا مثلك ، وهؤلاء الرجال اختصصناهم بوحينا ليلغوه الى من أرسلوا اليهم ، واصطفيناهم من بين أهل القرى والمدائن ، لكونهم أصنى عقولا ، وأكثر حلما .

وانما جعلنا الرسل من الرجال ولم نجعلهم من الملائكة أو من الجن أو من غيرهم ، لأن الجنس الى جنسه أميل ، وأكثر تفهما وإدراكا لما يلقى عليه من أبناء جنسه .

ثم نعى - سبحانه - على هؤلاء المشركين غفلتهم وجهالتهم فقال : (فلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ...)

أى : أوصلت الجمالة والغفلة هؤلاء المشركين . أنهم لم يتعظوا بما أصاب الجاحدين من قبلهم . الجاحدين الذين

دمروا ما زالت آثار بعضهم باقية وظاهرة في الأرض . وقومك - يا محمد - يعمرون عليهم في الصباح وفي المساء وهم في طريقهم إلى بلاد الشام . كقوم صالح وقوم لوط - عليهما السلام -

فالجملة توبيخ شديد لأهل مكة على عدم اعتبارهم بسوء مصير من كان على شاكلتهم في الشرك والجهود .

وقوله (ولدار الآخرة) وما فيها من نعيم دائم (خير للذين اتقوا) الله تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .

(أفلا تعقلون) أيها المشركون ما خاطبناكم به فيحملكم هذا التعقل والتدبر إلى الدخول في الإيمان . وبذالك كفر والطغيان :

ثم حكى - سبحانه - سنة من سنته التي لا تتخلف ولا تبدل فقال : (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ...)

وفي قوله قد (كذبوا) وردت قرأتان سبعتان إحداهما بتشديد الذال والثانية بالتخفيف .

وعلى القراءتين فالغاية في قوله - تعالى - (حتى إذا استيأس الرسل) غاية للكلام محذوف دل عليه السياق ، والمعنى على القراءة التي بالتشديد :

لقد أرسلنا رسالنا لهداية الناس ، فأعرض الكثيرون منهم عن دعوتهم ، ووقفوا منهم موقف المنكر والمعاند والمحارب لهدايتهم ، وضاق الرسل ذرعا بموقف هؤلاء الجاحدين ، حتى إذا استيأس الرسل الكريم من إيمان هؤلاء الجاحدين ، وظنوا - أي الرسل - أن أقوامهم الجاحدين قد كذبوهم في كل ما جاءوهم به لكثرة إعراضهم عنهم ، وإيذائهم لهم

أي : حتى إذا ما وصل الرسل إلى هذا الحد من ضيقهم بأقوامهم الجاحدين جاءهم نصرنا الذي لا يتخلف :

والمعنى على القراءة الثانية التي هي بالتخفيف : حتى إذا ينس الرسل من إيمان أقوامهم بأسا شديدا ، وظن هؤلاء الأقوام أن الرسل قد كذبوا عليهم فيما جاءهم به ، وفيما هدوهم به من عذاب إذا ما استمروا على كفرهم ..

حتى اذا ما وصل الامر بالرسول وبالأقوام إلى هذا الحد ، جاء نصرنا الذي لا يتخلف إلى هؤلاء الرسل ، فضلا منا وكرمنا ...

فالضمير في قوله (كذبوا) بالتشديد يعود على الرسل ، أما على قراءة التخفيف (كذبوا) فيعود إلى الأقوام الجاحدين .

ومنهم من جعل الضمير - أيضاً - على قراءة (كذبوا) بالتخفيف يعود على الرسل ، فيكون المعنى : حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم ، وظنوا أي الرسل - أن نفوسهم قد كذبت عليهم في تحديد موعد انتصارهم على أعدائهم لأن البلاء قد طال ، ونصر قد تأخر ... جاءهم - أي الرسل - نصرنا الذي لا يتخلف قال الشيخ القاسمي في بيان هذا المعنى : قال الحكيم الترمذي : ووجهه - أي هذا القول السابق - أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر : أن يتخلف النصر ، لاعتهم بوعده الله ، بل عن تهمة لنفوسهم أن تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط ، فكان النصر إذا طال اشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة ،^(١) وهذا يدل على شدة محاسبة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لنفوسهم ، وحسن صلتهم بخالقهم - عز وجل - .

وقوله . سبحانه - وفجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ، معطوف على ما قبله ، ومتفرع عليه .

أي : جاءهم نصرنا الذي وعدناهم به ، بأن أنزلنا العذاب على أعدائهم ، فنجى من نشاء لإنجاءهم المؤمنين بالرسول ، ولا يرد بأسنا وعذابنا عن القوم المجرمين عند نزوله بهم .

ثم ختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله : لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، أي : لقد كان في قصص أولئك الأنبياء الكرام وما جرى لهم من أقوامهم ، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وأحكام ، وآداب وهدايات .

(١) تفسير القاسمي ج ٩ ص ٣٦١٥

« وما كان ، هذا المقصود في كتاب الله - تعالى - حديثا يفترى ، أى يختلق .

« ولكن ، كان « تصديق الذى بين يديه » من الكتب السابقة عليه ، كالطورا والإنجيل والزبور ، فهو المهيمن على هذه الكتب ، والمؤيد لما فيها من أخبار صحيحة ، والمبين لما وقع فيها من تحريف وتغيير ، والحاكم عليها بالنسخ أو بالتقرير .

« وتفصيل كل شىء » ، أى : وكان فى هذا الكتاب - أيضا - تفصيل وتوضيح كل شىء من الشرائع المجملّة التى تحتاج إلى ذلك .

« وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، أى : وكان هداية تامة ، ورحمة شاملة ، لقوم يؤمنون به ، ويعملون بما فيه من أمر ونهى ، ويذنبون بما أشتمل عليه من وجوه العبر والعظات .

وبعد : فهذا تفسير لسورة يوسف - عليه السلام - ، تلك السورة الزاخرة بالحكم والأحكام ، والآداب والأخلاق ، والمحاورات والمجادلات ، وبأحوال النفوس البشرية فى حبها وبغضها ، وعسرها ويسرها ، وخيرها وشرها ، وعظائمها ومنعها وسرها وعلائقتها ، ونضائها وغضبها ، وحزنها وسرورها . . .

أصأل الله تعالى - أن ينفعنا بهدى كتابه ، وأن يجعله شفيعا لنا يوم نلقاه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد السيد طنطاوى

الأستاذ بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر

فهرس تفسير سورة يوسف

رقم الآيات	الآيات المفسرة	الصفحة
	مقدمة	٣
	تعريف بسورة يوسف	د
١ - ٦	الر ، تلك آيات الكتاب ..	٢٣
٧ - ١٥	لقد كان في يوسف وإخوته ..	٣٣
١٩ - ٢٢	وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم	٤١
٣٠ - ٣٤	وقال نسوة في المدينة ..	٧٠
٣٥ - ٤٢	ثم بدا لهم من بعد ما رأى الآيات ..	٧٨
٤٣ - ٤٩	وقال الملك إني أولأ سبع بهرات ..	٨٩
٥٠ - ٥٧	وقال الملك أتموني به ..	٩٧
٥٨ - ٦٢	وجاء إخوة يوسف ..	١٠٩
٦٣ - ٦٨	فلما رجعوا إلى أبيهم ..	١١٥
٦٩ - ٨٢	ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ..	١٢٢
٨٣ - ٨٧	قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ..	١٣
٨٨ - ٩٨	فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز ..	١٤١
٩٩ - ١٠١	فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ..	١٠٨
١٠٢ - ١١١	ذلك من أنباء الغيب ..	١٥١

